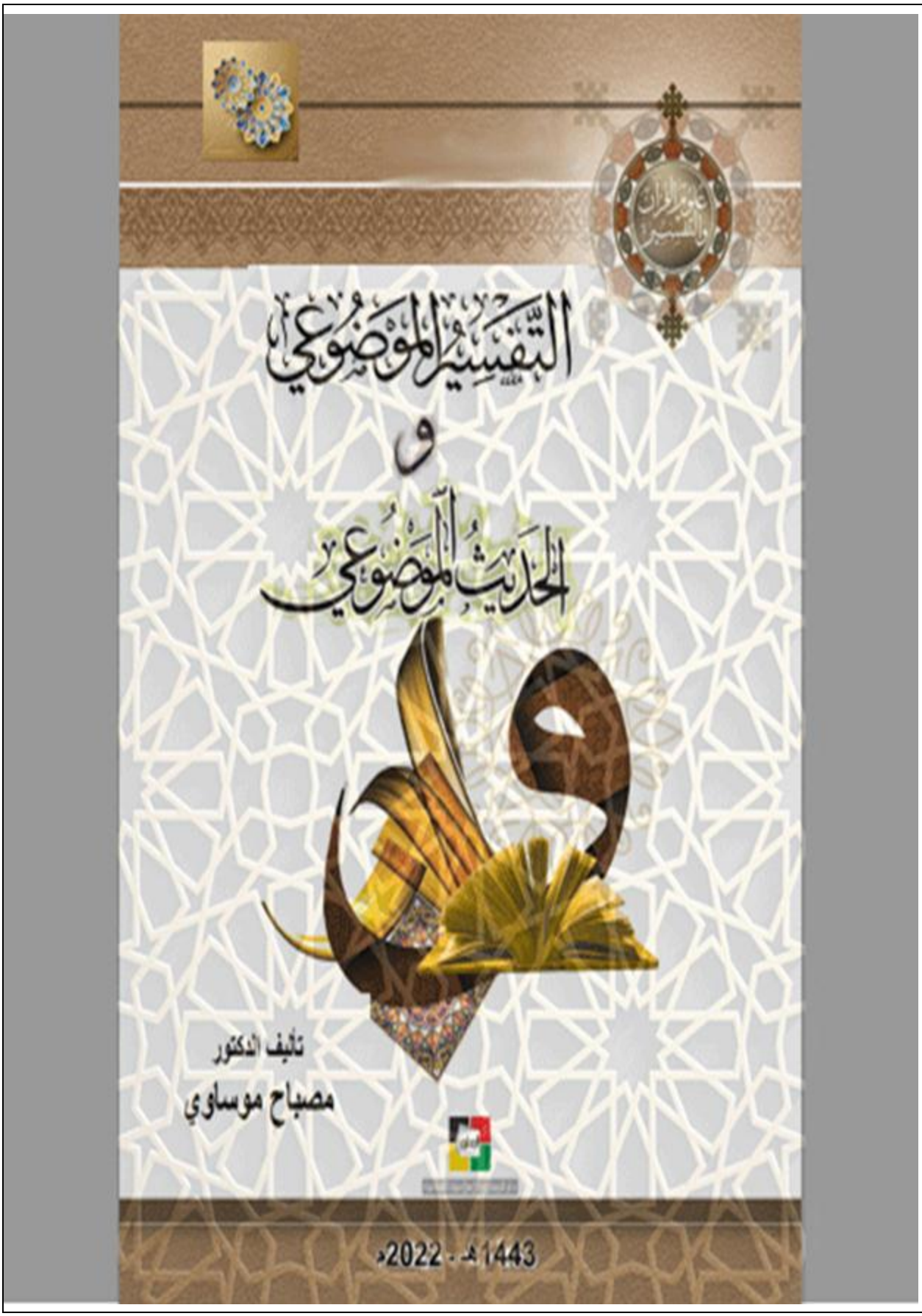
التفسير الموضوعي
و
الحديث الموضوعي
تأليف الدكتور
مصباح موساوي
1443هـ - 2022م

التفسير والحديث الموضوعي

الرصيد:04 الدكتور مصباح موساوي

المعامل:02 أستاذ التفسير وعلوم القرآن

جامعة الشهيد حمة لخضر ـ الوادي

أهداف التعليم: التعرّف على أسلوب معالجة القرآن الكريم للمواضيع المتعلقة بالعقيدة، والتدريب على حسن التعامل مع الآيات جمعا واستيعابا وفهما في الموضوع الواحد كنسق رتيب، وتسليط الضوء على مواضيع شتى تتعلق بالعقائد والأديان ودراستها دراسة تأصيلية يكون المرجع فيها بالأساس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما قاله شراح السنة وأهل العلم في ذلك الموضوع.

المعارف المسبقة المطلوبة: معارف حصلها الطالب جراء دراسته لعلوم القرآن وعلم مصطلح الحديث ومناهج المفسرين والمحدثين في السداسيات الأربع السابقة.

محتوى المادة: محتوى المادة الخاصة بالتفسير الموضوعي: ثماني محاضرات

المحاضرة (01):

دليل الأفاق في القران الكريم دراسة موضوعية

دليل الأنفس في القران الكريم دراسة موضوعية

منهج القرآن في الاستدلال على عقيدة التوحيد.

المحاضرة (02) : منهج القرآن الكريم في الاستدلال على عقيدة البعث.

المحاضرة (03): منهج القرآن في الاستدلال على عقيدة النبوة.

المحاضرة (04):

الجدل في القرآن نوح عليه السلام أنموذجا

الجدل في القرآن ابراهيم عليه السلام أنموذجا

الجدل في القرآن موسى عليه السلام أنموذجا.

المحاضرة (05): القضاء والقدر في القرآن الكريم دراسة موضوعية.

المحاضرة: (06): كلمة التوحيد في القرآن دراسة موضوعية.

المحاضرة (07): وحدة التدبير في القرآن الكريم سورة يوسف أنموذجا.

المحاضرة (08): وحدة التدبير في القرآن سورة القصص أنموذجا. (المضامين العقدية للقصص القرآني)

محتوي المادة الخاصة بالحديث الموضوعي: خمس محاضرات

1. **المحاضرة (09):** المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في الحديث النبوي دراسة موضوعية
2. **المحاضرة (10):** عقيدة المهدي المنتظر من خلال السنة النبوية دراسة مقارنة
3. **المحاضرة (11):** القضاء والقدر من خلال السنة النبوية
4. **المحاضرة (12):** حقيقة الشرك من خلال الحديث النبوي
5. **المحاضرة (13):** حقيقة الكفر من خلال السنة دراسة موضوعية.

المراجع :

1. كتب التفاسير على اختلاف اتجاهاتها وقديمها وحديثها
2. كتب شروح السنة
3. نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم محمد الغزالي
4. المدخل إلى التفسير الموضوعي
5. مباحث في التفسير الموضوعي
6. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق
7. المحاور الخمسة للقرآن الكريم محمد الغزالي
8. عقيدة التوحيد في القرآن الكريم محمد الملكاوي
9. العقيدة الإسلامية وأسسها عبد الرحمان الميداني
10. النبأ العظيم
11. عقيدة المسلم محمد الغزالي

المصادر والمراجع الخاصة بالحديث الموضوعي

1. فتح الباري لابن حجر .
2. إرشاد الساري للقسطلاني
3. عمدة القاري لبدر الدين العيني
4. شرح النووي على مسلم
5. شروح السنن الأربعة وباقي كتب السنة
6. العقيدة الإسلامية وأسسها عبد الرحمان الميداني
7. عقيدة المسلم محمد الغزالي
8. عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر عبد المحسن عباد
9. القضاء والقدر للبيهقي
10. القضاء والقدر عمر سليمان الأشقر
11. الشرك ومظاهره مبارك الميلي
12. الحد الفاصل بين الإيمان والكفر عبد الرحمان عبد الخالق

تعريف التفسير الموضوعي

وهو تفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات الواردة فيه؛ بمعنى جمع الآيات الواردة في سور مختلفة حول موضوع واحد، ثمّ تفسيرها جميعاً والخروج بنتيجة واحدة، وقد أُطلق على هذا اللون من التفسير بالتفسير الموضوعي.

المحاضرة (01)

منهج القرآن في الاستدلال على عقيدة التوحيد

مقياس التفسير والحديث الموضوعي ــ مقرر سنة ثالثة دعوة وثقافة إسلامية . المحاضرة (01) الدكتور: مصباح موساوي

المبحث الأول: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم

تمهيد: إنَّ أساس نظام الحياة البشريَّة الذي فطر الله عليه الناس هو عقيدة التوحيد؛ لأنَّه بدون هذه العقيدة لا يمكن لأيِّ إنسانٍ أن يعرف مركزه في الحياة، ولا علاقته بالكون، ولا الغرض الذي من أجله خُلِق، وهذه العقيدة التي فُطِر الناس عليها هي الموجِّه الحقيقيُّ لأفكار الإنسانيَّة وسلوكها وسائر تصرُّفاتها؛ ولذا لا يمكن التخلِّي عنها في شأنٍ من الشئون، قال تعالى: "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون"، والرسول ﷺ أخبرنا أيضاً بأنَّ هذه الفطرة موجودةٌ في نفس كلِّ إنسان، ولكنَّ الغرائز والميول التي جعلها الله سبحانه وتعالى في طبيعة الإنسان ساعدت على انزلاقه وراء الأهواء والشهوات والانحراف عن الطريق المستقيم: "ما من مولودٍ إلا يولَد على الفطرة؛ فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه" متفقٌ عليه.

إن للعقيدة الصحيحة مكانتها العظمى في إصلاح حياة الناس، ونشر الطمأنينة والاستقرار في جوانب النفس وفي ربوع الأرض.

ولما كانت العقيدة تتعرض دائما إلى هجوم مستمر من أعداء الله على مدى الأيام، حتى أثرت على كثير من الشباب في مختلف أقطار العالم الإسلامي، فأضعفت العقيدة في نفوسهم، وبدا ذلك واضحا في انحراف الشباب إلى الاقتداء بالغرب والارتواء من عقائدهم الفاسدة، لذا وجب توضيح هذه العقيدة والاعتماد في توضيحها وفقا لما جاء في القرآن الكريم.

ــ تعريف العقيدة لغة: مأخوذة من العقد، "وهو نقيض الحلِّ، وهو وصل الشيء بغيره، كما تعقد الحبل بالحبل، ثم استعمل في جميع أنواع العقود في المعاني والأجسام"[1]، وهو يدل على الشدة والوثوق، من استعمالاته في المعاني أن يقال: عقد العهد واليمين، أي: أكدهما، منه قوله تعالى: (والذين عقدت أيمانهم)، النساء: 33، وقريء بالتشديد ومعناه التوكيد والتغليظ كقوله تعالى: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها)، النحل: 91.

استعمل العقد في البيع والنكاح وغيره فيقال: عقد البيع وعقد النكاح، وعقدته: إبرامه وإحكامه ووجوبه، ومنه: اعتقد الأمر: أي صدقه، واعتقدت كذا: عقدت عليه القلب والضمير، حتى قيل: العقيدة: هي ما يدين الإنسان به[2].

تعريف العقيدة شرعا: هي ما يدين به الإنسان ربه، وجمعها عقائد، والعقيدة مجموعة الأمور الدينية التي يجب على المسلم أن يصدق بها قلبه وتطمئن إليها نفسه، وتكون يقينا عنده، لا يمازجه شك، ولا يخالطه ريب، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظنا لا عقيدة، ودليل ذلك قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا)، الحجرات: 15، وقوله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب)، البقرة: 2، وقوله تعالى: (إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه)، آل عمران: 9.

قال محمود خطاب: "العقيدة هي مُثل عليا يؤمن بها الإنسان فيضحي من أجلها بالأموال والنفس، لأنها عنده أغلى من الأموال والنفس"[3].

أنواع التوحيد الثلاثة وكيف يحصل الإشراك بكل نوع منها

---

1 ــ ينظر: معجم مقاييس اللغة، 87/4، ولسان العرب، 413/3.

2 ــ ينظر: معجم مقاييس اللغة، 88/4، والمصباح المنير، 71/2.

3 ــ ينظر: بين العقيدة والقيادة، محمود خطاب، ص: 33.

1 ــ توحيد الربوبية:

أ ــ معناه هو الاعتقاد الجازم بأن الله وحده هو رب كل شيء ومليكه، وهو الخالق الرازق المحيي المميت الضار النافع المعطي المانع، المتصرف في هذا الكون بمشيئته المطلقة، وليس معه رب آخر يشركه[1].

والقلوب مفطورة على الاعتراف بالرب سبحانه أكثر من اعترافهم بأي شيء آخر، ولذلك أجاب الرسل أممهم بالاستفهام الإنكاري بقولهم: (أفي الله شك فاطر السموات والأرض)، إبراهيم: 10.

وقد كان المشركون مقرين بتوحيد الربوبية، وذلك واضح في كثير من آيات القرآن الكريم[2]، منها قوله تعالى: (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون)، يونس: 31.

ب ــ الشرك في الربوبية: المثبتون للخالق نوعان: أهل توحيد، وأهل إشراك في الربوبية، و لم يقع الشرك في الربوبية إلا من طوائف معدودة، والشرك في الربوبية نوعان:

النوع الأول: **شرك التعطيل**: وهو من أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون عندما قال: (وما رب العالمين)، الشعراء: 23، فهو أشهر من أنكر الصانع لكنه كان في الباطن مستيقنا أن موسى أصدق منه في الدعوة لربوبية الله، قال تعالى عنه وعن قومه: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)، النمل: 14، لذلك كان رد موسى عليه: (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر)، الإسراء: 102.

وكذلك القائلون بالصدفة والطبيعة، والدهريون الذين قالوا: (ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)، الجاثية: 24، وهم الشيوعيون في زماننا، وكذلك الفلاسفة القائلون بقدم العالم وأبديته، وأن العقل الفعال هو الخالق المدبر لكل ما تحته، ومنهم الذين يقولون بأن النجوم أحياء فاعلة مؤثرة بالخلق.

النوع الثاني: من شرك الربوبية يكون باعتقاد أكثر من صانع للعالم؛ كالثنوية من المجوس الذين يقولون بوجود أصلين خالقين للعالم وهما: يزدان إله النور، ويخلق الخير، وأهرمن: إله الظلمة ويخلق الشر، لكن إليه الخير عندهم أحسن من إله الشر.

وكذلك شرك النصارى الذين يقولون بالآب والابن والروح القدس، ولكنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب منفصلة، بل يقولون بأن صانع العالم واحد، وهم مضطربون جدا في تعبيرهم بالأقانيم الثلاثة لأنهم يفسرون الأقنوم تارة بالخواص، وتارة بالأشخاص، وأخرى بالصفات[3].

2 ــ توحيد الألوهية:

أ ــ معناه: وهو المسمى بتوحيد العبادة، أو التوحيد العملي، ومعناه الاعتقاد الجازم بأن الله وحده هو المستحق لجميع أنواع العبادة، مع القيام بصرف هذه العبادات له وحده، ولا يصرف منها شيء لغيره، والكلمة المعبرة عن هذا المعنى أدق تعبير هي كلمة الشهادة: لا إله إلا الله، فمعناها أنه لا معبود بحق إلا الله[4].

وهذا التوحيد هو الذي جاءت به الرسل، ودعوا إليه أقوامهم، فالرسل مقررون لتوحيد الربوبية، داعون لتوحيد الألوهية، كما أخبر الله عنهم[5]، فقال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)، الأنبياء: 25، وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: (وإلى مدين أخاهم شعيب قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، هود: 84.

---

1 ــ ينظر: عقيدة التوحيد، ملكاوي، ص: 110.

2 ــ ينظر: سورة المؤمنون: 84 ــ 89، ولقمان: 25، الزخرف: 9، و 87.

3 ــ ينظر: الفتاوي، 96/3، ودعوة التوحيد للهراس، ص: 33، وتيسير العزيز الحميد، ص: 27.

4 ــ ينظر: الفتاوي، 104/1، و106/19، ومدارج السالكين، 25/1، واجتماع الجيوش الإسلامية، ص: 47، وشرح الطحاوية، ص: 23.

5 ــ ينظر: تيسير العزيز الحميد، ص: 20.

فكان كل رسول أول ما يقرع به سمع قومه: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، وافتتاح الدعوة بهذا النداء دليل أكيد على أن الرسل لم يبعثوا لتعريف الخلق بخالقهم وإثبات وجوده، لأن معرفته والإيمان بوجوده فطري إنما بعثوا لتعبيد الخلق لإلههم ومعبودهم الحق، ونبذ ما يعبد من دونه من الآلهة المزعومة[1].

وفي هذا النوع من التوحيد ـــ توحيد الألوهية ـــ وقع النزاع بين الرسل وأممهم، حيث أنكر المشركون الدعوة لتوحيد الإله المعبود بقولهم: (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب)، ص: 5، ولهذا كان سياق الآيات الدالة على الربوبية يأتي بالاستفهام التقريري لأنهم مقرون بالرب، كقوله تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)، النحل: 17، وقوله تعالى: (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين)، لقمان: 11، وقوله تعالى: (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون)، فاطر:3.

ويتضح هذا المعنى تماما إذا علمنا أن مبدأ انحراف البشرية عن حقيقة التوحيد لم يكن شركا في الربوبية، إنما كان شركا في الألوهية، وهكذا كل انحراف خلال التاريخ البشري، إنما كان عن طريق الانحراف في العبادة، قال تعالى عن قول نوح عليه السلام: (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)، نوح: 23، وهي أسماء رجال صالحين ماتوا فصورهم قومهم ثم جاء من بعدهم فعبدوهم[2].

وكذا شرك كل قوم كان مبدؤه من عبادة غير الله، كذلك العرب الذين كانوا على بقية من دين إبراهيم حتى جاء عمرو بن عامر الخزاعي بأصنام من الشام إلى الجزيرة، فنصب هبل، وعبده وعظمه، وتبعه الناس في ذلك[3].

ب ـــ الشرك في الألوهية: هذا أدق أنواع الشرك وأكثرها شيوعا بين الناس، فمن صرف أي نوع من أنواع العبادات لغير الله أو صرفها لله ولغيره، فهو مشرك في الألوهية[4]، ولذلك حارب القرآن هذا النوع من الشرك، وهدم وسائله فقال تعالى في عبادة الحب: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله)، البقرة: 165، وقال تعالى في عبادة التوكل: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)، المائدة: 23، وقال تعالى في عبادة الخوف: (فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)، التوبة: 13، وقال في عبادة الرجاء: (أولئك يرجون رحمة الله)، البقرة: 218، وقال تعالى في عبادة الدعاء: (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين)، يونس: 106، وقال في عبادة الصلاة والذبح: (فصل لربك وانحر)، الكوثر: 3، وقال في عبادة الصلاة والزكاة: (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير)، الحج: 78، وقال في عبادة الطواف والنذر: (ثم ليقضوا تفثهم وليفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق)، الحج: 29، وقال في عبادة الاستغفار: (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله)، آل عمران: 135، وقال في عبادة الاستعاذة: (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)، النحل: 98، وقال: (قل أعوذ برب الفلق)، الفلق: 1، وقال في عبادة الاستغاثة: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم)، الأنفال: 9...

3 ـــ توحيد الأسماء والصفات: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة التدمرية: (فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله نفيا وإثباتا، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها: إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون)، وقال تعالى: (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار

---

1 ـــ ينظر: الفتاوي، 332/16، ومدارج السالكين، 443/3، ومفتاح دار السعادة، 212/1، وتطهير الاعتقاد للصنعاني، ص:6.

2 ـــ ينظر: إغاثة اللهفان، 209/2، وفتح الباري، 667/8، كتاب التفسير.

3 ـــ ينظر: فتح الباري، 383/8، كتاب التفسير، وإغاثة اللهفان، 221/2.

4 ـــ ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ص: 357.

خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم)، فصلت: 40، فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات: إثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، الشورى: 11، ففي قوله: (ليس كمثله شيء)، رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله: (وهو السميع البصير)، رد للإلحاد والتعطيل[1].

المنهج القرآني في تقرير عقيدة التوحيد

إن للقرآن الكريم منهجه الخاص به في تقرير عقيدة التوحيد، وذلك لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنعرض للطريقة التي سلكها القرآن في تقرير عقيدة التوحيد ومحاربة الشرك، وهذه بعض تلك الطرق كالآتي:

المبحث الأول: تقرير القرآن للتوحيد بالأدلة الكونية

إنني لن أتحدث في هذا الفصل عن الآيات القرآنية الكونية بمنطق النظريات العلمية؛ لأن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز لا كتاب فيزياء وكيمياء وجيولوجيا وغيرها من العلوم العصرية، وكلامي على الآيات القرآنية الكونية من حيث بساطتها ووضوحها، وأن النظر فيها يؤدي لمعرفة الله ووحدانيته كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

"النظر لا ريب في صحته في الجملة، وأنه إذا كان في دليل أفضى إلى العلم بالمدلول، وإذا كان في آيات الله أفضى إلى الإيمان به الذي هو رأس العبادة"[2].

وقد تحدثت في هذا الفصل عن أربع نقاط هي:

أ- اشتمال الآيات القرآنية الكونية على دليلي الخلق والعناية.

ب- آية السموات والأرض.

جـ- آية الشمس والقمر والليل والنهار.

د- آية الرياح والسحاب والمطر والنبات.

ولم أذكر في هذا الفصل جميع ما ورد في القرآن من الآيات الكونية؛ لأن استقراءها يجعل الموضوع طويلًا جدًّا، والغرض هو التنبيه على الاستدلال بهذا النوع من الآيات، فرأيت الاكتفاء بما يدل على المقصود، وفيما يلي الكلام على هذه النقاط مرتبًا.

اشتمال الآيات القرآنية الكونية على دليلي الخلق والعناية

أ- اشتمال الآيات القرآنية الكونية على دليل الخلق والعناية

مدخل

إذا نظرنا إلى الآيات القرآنية الكونية نرى أنها تنبه إلى دليلي الخلق والعناية في الكون، وهما دليلا الشرع، وقد يكون الدليلان معًا في الآية الواحدة، فآيات القرآن:

أ- إما أن تتضمن التنبيه على دليل الاختراع.

ب- وإما أن تتضمن التنبيه على دليل العناية.

جـ- وإما أن تتضمن التنبيه على الدليلين السابقين معًا[3].

وهذان الدليلان ترد عليهما شبهتا الطبيعة والصدفة، وفيما يلي بيان كل دليل ورد الشبهة الواردة عليه.

1- دليل الخلق

---

1 ــ ينظر: الرسالة التدمرية، ص: 4.

2 - انظر: الفتاوى 47/2.

3 - انظر: تلبيس الجهمية 173/1 ، وانظر مناهج الجدل ص 136- 137.

ويسمى دليل الإبداع أو الاختراع وهو مبني على أصلين:

أ- أن الموجودات مخترعة.

ب- كل مخترَع لا بد له من مخترع[1].

ويعتمد هذا الدليل على إثارة الفكر للتعرف على خالق الموجودات جميعها والاستدلال بذلك على وحدانيته تعالى، وهو أول دليل تلفت الآيات النظر إليه، كقوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، البقرة: 116- 117، وقوله تعالى: {إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}، الجاثية: 3-4.

وملخص هذا الدليل أن كل ما في الكون مخلوق، والمخلوق لا بد له من خالق؛ لأنه يستحيل أن يكون خُلق من غير خالق، ولهذا كان كل رسول يقول لقومه: {أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}، إبراهيم:10.

وقد كان المشركون يؤمنون بهذا الدليل من حيث دلالته على توحيد الربوبية ولا يؤمنون بدلالته على توحيد الألوهية. قال تعالى عنهم: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}، العنكبوت: 61.

وقال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ}، العنكبوت: 63.

وقد أقام القرآن الحجة عليه بهذا التوحيد توحيد الربوبية ليكون موصلًا لهم لتوحيد الألوهية، حيث يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، البقرة: 21، وقال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً}، المزمل: 9، والمعنى: كما أنه المتفرد بربوبية المشرق والمغرب وربوبية السموات والأرض وليس لذلك رب سواه، فكذلك ينبغي أن لا يُتخذ إلهٌ سواه[2].

وكذلك لما أقسم سبحانه وتعالى على الوحدانية في سورة الصافات، أتبع هذا القسم بذكر ربوبيته تعالى للسموات والأرض ومشارقها فقال تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفّاً، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً، إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ}، الصافات:1-5.

يقول ابن القيم: فإن الإقسام كالدليل والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد.. وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} من أعظم الأدلة على أنه إله واحد ولو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركًا له في ربوبيته كما شاركه في إلهيته، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبودًا واحدًا بكونه خالقًا ورازقًا وحده"[3].

2- دليل العناية:

ويسمى دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزاءه بحيث يكمل بعضها بعضًا وقدر كل شيء فيه تقديرًا، هو الله الواحد الأحد، ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها دليل العناية قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، الأنبياء: 31 ــ33، وقوله تعالى: {وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَأَرْسَلْنَا

1 - انظر: تلبيس الجهمية 173/1 ، وانظر مناهج الجدل ص 136- 137.

2 - انظر التبيان لابن القيم ص: 142.

3 - التبيان لابن القيم ص: 309.

الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}، الحجر: 19 ــ22، وقوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً، وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ

سُبَاتاً، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً، وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً، وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً}، النبأ: 6 ــ16.

هذه الآيات القرآنية التي ذكرناها وآيات أخرى كثيرة تلفت نظر الإنسان لما في هذا الكون من التنظيم الدقيق والتناسق بين أجزاء الكون أقصى غايات الدقة والإتقان ليدل دلالة قاطعة على العناية التامة بهذا الكون وما فيه، وأن إلهًا واحدًا قادرًا هو الذي نظم كل ما فيه أحسن تنظيم[1].

إنه لا يوجد أي شيء في الكون إلا في محله المناسب وبالقدر المناسب، فكل ما فيه في غاية الحكمة والعناية والإتقان، والناظر لهذا الإتقان العجيب والتنظيم المدهش في كل شيء في الأرض وفي السماء وما بينهما -بحيث أن أي تغيير فيه يؤدي إلى الخلل والفساد؛ لا يسعه إلا أن يؤمن بوحدانية الله تعالى.

إننا لو سألنا عالم الفلك فإنه يبين لنا من دقائق الحسابات الفلكية وتنظيم الكواكب وأحجامها وأبعادها ما يحير العقول.

ولو سألنا عالم التشريح عن جسم الإنسان، وعالم الحيوان عن أنواع الحيوان الطائر والسابح والماشي والزاحف بأشكاله وألوانه وخواصه ومعيشته وغرائبه؛ لأسلمنا ذلك بلا شك إلى وحدانية الله.

ولو سألنا عالم النبات عن أنواعه وثماره وأوراقه وطعومه وخواصه لأجابنا بما يدل دلالة قاطعة على وحدانية الله.

ولو نظرنا إلى التنظيم الدقيق في الأرض ببحرها ويابسها وجبالها وأغوارها وسهولها وصخورها ورمالها ومعادنها وينابيعها وأنهارها وطبقاتها، لأدى بنا ذلك إلى الاعتراف بوحدانية الله.

إن العقل السليم يرفض رفضًا تامًّا أن يكون أي ترتيب وتنظيم لشيء ما حدث بصورة عفوية وبطريق الصدفة، فلو دخلنا دارًا أو محلًّا تجاريًّا منظمًا لأدى بنا النظر لأول وهلة إلى أن منظمًا نظم هذه الدار وهذا المحل، فكيف بهذا الكون المنظم كل شيء فيه أحسن تنظيم؟.

منهج القرآن في الاستدلال على على عقيدة التوحيد

ب- آية السماوات والأرض

ذكرت آية الأرض مع آية السماء لأنهما تذكران معًا في معظم آيات القرآن الكريم ولارتباط الاستدلال بهما ببعضه البعض، وفيما يلي البيان:

1- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، البقرة:21 ــ 22.

في هذه الآية يطلب الله تعالى من الناس جميعًا أن يوحدوه ولا يشركوا به الأصنام والأنداد وهم يعلمون أنه الذي بنى السماء وفرش الأرض. قال ابن كثير: "وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له"[2].

وقال الزمخشري: "أي هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالواحدانية، فلا تتخذوا له شركاء"[3].

---

1 - انظر تلبيس الجهمية 174/1.

2 - انظر تفسير ابن كثير 58/1.

3 - انظر: الكشاف 233/1.

2- قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، البقرة: 163 ــ 164.

هذه الآيات الكونية بدئت بالنص على الوحدانية، ثم نبه تعالى عباده على تفرده بالألوهية بخلق السموات والأرض وما بينهما؛ لأن من نظر إلى السماء في ارتفاعها وسعتها وإلى الأرض واستقرارها أداه لتوحيد الله وعبادته؛ لأن في خلق السماوات والأرض دلالات واضحة لقوم يعقلون عن الله حججه وأدلته على وحدانيته[1].

قال الطبري: "وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره أهل الشرك به على ضلالهم ودعاء منه لهم إلى الأوبة من كفرهم والإنابة من شركهم، ثم عرفهم تعالى ذكره بالآية التي تتلوها موضع استدلال ذوي الألباب منهم على حقيقة ما نبههم عليه من توحيده وحججه الواضحة القاطعة عذرهم، فقال تعالى ذكره: أيها المشركون، إن جهلتم أو شككتم في حقيقة ما أخبرتكم من الخبر من أن إلهكم إله واحد دون ما تدعون ألوهيته من الأنداد والأوثان، فتدبروا حججي وفكروا فيها، فإن من حججي خلق السماوات والأرض"[2]. انتهى بلفظه.

3- قال تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}، الحج: 65، وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}، لقمان:10، وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}، الرعد: 2، ففي هذه الآيات نبه سبحانه وتعالى إلى وقوف السماء بغير عمد، وأن الله ممسكها بقدرته وعظيم سلطانه، وجعلها من البعد بحيث لا تنال، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، كما أن بعد ما بين كل سماء والتي تليها خمسمائة عام، ومن كان هذا خلقه فهو متعالٍ عن الشريك كما قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، النحل:3. فأنى يكون له شريك وقد خلقهما بالحق وهو التوحيد، منفردًا بخلقهما وإبداعهما من غير حاجة لأحد[3].

جـــ - آية الشمس والقمر والليل والنهار

ذكرت آية الشمس والقمر مع آية الليل والنهار لورودها مجتمعة في بعض المواضع من آيات القرآن الكريم:

1- قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}، يونس: 5 ــ 6.

في هاتين الآيتين تنبيه على أن الله وحده هو الذي خلق الشمس والقمر والليل والنهار بغير معين ولا شريك، فقوله: "هو" دلالة على الوحدانية أي هو الذي جعل الشعاع الصادر عن الشمس ضياء وجعل الشعاع الصادر عن القمر نورًا، وفاوت بينهما بأن جعل سلطان الشمس نهارًا وسلطان القمر ليلًا وقدر القمر منازل.

فالمتدبر لذلك يعلم حقيقة الوحدانية، قال الطبري: "لقوم يعلمون إذا تدبروها حقيقة وحدانية الله"[4].

وانظر كيف وضعت الشمس في مكانها الخاص بها والقمر في مكانه الخاص به ووضعت الكواكب في أمكنتها الخاصة بها ودوران ذلك كله، كما قال تعالى: {كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، الأنبياء: 33، ويس:40. قال ابن عباس: "أي يدورون كما يدور المغزل في الفلكة" قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن"[5].

---

1 - انظر تفسير ابن كثير 201/1 وتفسير الطبري 61/2.

2 - تفسير الطبري 61/2.

3 - انظر تفسير الطبري 95/13 ومفتاح دار السعادة 1/ 196وتفسير ابن كثير2/ 499، 3/ 233.

4 - تفسير الطبري 86/11 وانظر تفسير ابن كثير 407/2.

5 - انظر تفسير الطبري 22/17 وتفسير ابن كثير 178/3.

وانظر هذا التقدير الحكيم بأن جعل الله الليل والنهار مرتبطين بدورة الشمس، فلا يستطيع أحد إيقاف الشمس عن دورها، أو حبس الليل والنهار عن جزء من الأرض؛ لأن الله وحده هو الذي يتولى ذلك كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}، الحج: 61 ــ 62.

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: "فعلت هذا الفعل من إيلاجي الليل والنهار وإيلاجي النهار في الليل؛ لأني أنا الحق الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهًا من دونه هو الباطل الذي لا يقدر صنعة شيء بل هو المصنوع[1]".

2 – قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، فصلت: 37.

في هذه الآية يبين تعالى أن الليل والنهار والشمس والقمر من دلائل وحدانيته ووجوب عبادته، ولا تستحق الشمس أو القمر العبادة، إنما يستحق ذلك خالقها دون كل شيء سواه.

يقول ابن كثير: "يقول تعالى منبهًا خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قدير: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} أي أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: {لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} أي لا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به"[2].

إذا نظرنا إلى العلم وجدناه يقول بأن مجموعتنا الشمسية ليست إلا جزءًا من أجزاء المجموعة المجرية، ومجرتنا هذه واحدة من مجرات عديدة، ويقول العلم بأن هناك نجومًا كثيرة أكبر من الشمس وأشد حرارة منها، وأن الشمس التي يستفيد من حرارتها كل نبت وحيوان درجة حرارة سطحها 12000 درجة فهرنهايت، وأن الأرض موضوعة بالمكان المناسب لاستمرار الحياة عليها، ولو زادت درجة الحرارة أو نقصت عن حد معين قدره الله تعالى لمات كل الأحياء على سطح الأرض حرقًا أو تجمدًا، وأن مسار القمر له علاقة بالمد والجزر الذي يحصل في البحار مرتين في العام، ولو كان القمر في غير هذا المسار الذي رسمه له خالقه لعم الماء جميع اليابسة وفاض عليها بحيث تصبح الحياة مستحيلة على ظهرها[3].

إن هذا الخلق العظيم والتنظيم الدقيق يدل دلالة قاطعة على وحدانية الله، وأنه المستحق أن يفرد بالعبادة دون كل شيء سواه.

د – آية الرياح والمطر والنبات

ذكرت الكلام عن هذه الآيات معًا لارتباطها ببعضها ولأنه يرد في القرآن اقتران الرياح بإنزال المطر ثم إنبات المزروعات والثمار، وهي من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وفيما يلي البيان:

1– يقول تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}، الحجر: 22.

---

1 - تفسير الطبري 196/17 وانظر تفسير ابن كثير 232/3.

2 - تفسير ابن كثير 102/4 وانظر تفسير الطبري 286/7 والتبيان لابن القيم ص208 ومفتاح دار السعادة 198/1-212.

3 - انظر كتاب العلم يدعو للإيمان لكريسي موريسون ص50-59.

في هذه الآية وصف الله تعالى الرياح بأنها لواقح؛ لأنها تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن وأوراقها وأكمامها فيبعث الله الرياح المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، أليس ذلك آية دالة على وحدانية الله المتصرف في هذا الكون[1]؟.

2- يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}، الحج: 63، ويقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ، يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ}، النور:43.

هذا تنبيه من الله تعالى لعباده على آية السحاب الحامل للماء الكثير، حيث يترل الله منه الأمطار بالحكمة البالغة بحيث لا تختلط قطرة بأخرى، ثم انظر كيف تعم الأمطار الأرض سهولها ووعورها وشعابها لينبت العشب للأنعام وسائر الهوام ويسقي المزروعات وتنبت الأشجار ويمد البحار والأنهار والآبار، وما يزيد منه يودعه الله في الأرض ليستخرجه الناس وقت الحاجة إليه.

يقول ابن القيم: "فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقًا للعباد والدواب والطير والذر والنمل، يسوقه رزقًا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل إليه على شدة الحاجة والعطش، وفي الوقت كذا وكذا ثم كيف أودعه في الأرض فأخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات"[2].

3- يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}، الأنعام: 95.

في هذه الآية نبهنا الله تعالى إلى أنه هو وحده الذي يشق الحب والنوى في الثرى، فتنبت منه الزروع والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها، ثم قال مشيرًا إلى وحدانيته تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} : أي فاعل ذلك هو الله وحده لا شريك، فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل بعبادتكم غير الله تعالى.

يقول الطبري: "وهذا تنبيه من الله جل ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياهم، يقول تعالى ذكره: إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان هو الله الذي فلق الحب يعني شق الحب من كل ما ينبت من النبات فأخرج منه الزرع والنوى من كل ما يغرس مما له نواة فأخرج منه الشجر.."[3].

4- ويقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، الأنعام:99.

الخضر: هو الزرع والشجر الأخضر. والمتراكب: هو الحب والثمر لأنه يركب بعضه بعضًا. والمشتبه وغير المتشابه: أي متشابه في الورق والشكل وهو مختلف في الطعم واللون.

إن التفكير في النبات والثمار وكيفية تكونها من البذرة حتى صارت زرعًا أخضرَ وثمرًا طيبًا بعد جفافها، واختلاف ألوان الثمار وطعومها مع كونها متشابهة في الشكل والورق لا شك يؤدي لمعرفة الله ووحدانيته، ولذلك حثنا الله على النظر للثمار فقال: {انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} فهي تدل دلالة واضحة على وحدانية الله، لذلك ذم الله تعالى المشركين بعد هذه الآية مباشرة فقال: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ} إلى قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، الأنعام:100 ــ 102.

---

1 - انظر تفسير الطبري 19/14 وتفسير ابن كثير 549/2 ومفتاح دار السعادة 200/1 والتبيان ص206.

2 - مفتاح دار السعادة 202/1 وانظر تفسير ابن كثير 297/3.

3 - تفسير الطبري 280/7، وانظر تفسير ابن كثير 158/2.

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: "يا أيها الناس إذا نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه، علمتم أن له مدبرًا ليس كمثله شيء ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد"[1].

وقد استنكر الهدهد على قوم بلقيس سجودهم للشمس من دون الله، مستدلًا على وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة بأنه خلق الماء والنبات وأخرجه بعد أن كان مخبوءًا في السماء والأرض وجعل ذلك حجة على المخالفين[2]. حيث قال تعالى عنه: {أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، النمل: 25 ــ 26.

بعض أساليب القرآن لإقناع الناس بالعقيدة:

1 - **أسلوب تحريك العقول البصيرة والرؤوس الرشيدة؛** لتنظر في الآفاق وفي أنفسها لترى في آياته الكبرى ما يدلُّها على هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ الرعد 2 - 4 ، وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: 20 - 21.

2 - **أسلوب التقابل بين مآل المؤمنين يوم القيامة** وما أعدَّ الله لهم من جنَّات الفردوس خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا، بسبب إيمانهم بالله ورسله واليوم الآخر، **في مقابل مآل الكافرين** وما أعدَّ الله لهم من الخسران وعذابٍ مهينٍ يوم القيامة، بسبب كفرهم بما جاءهم به الرسول ﷺ من الحقِّ الذي لا ريب فيه، والغرض من ذلك التقابل الترغيب في اتِّباع الحقّ، وما جاء به الرسول ﷺ من دعوة توحيد الله في الربوبيّة والألوهيّة، والتنفير من التكذيب بالله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ الكهف: 103 - 108 .

3 - **أسلوب الإجابة عن الأسئلة المتعلّقة بالله سبحانه وتعالى؛** فعندما طلب المشركون من الرسول ﷺ أن ينسب إليهم ربَّه، أنزل الله سبحانه وتعالى ردًّا على طلبهم هذا: "قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفُواً أحد".

وعندما جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعَظْمٍ حائل، ففتَّه، فقال: يا محمد، أيبعث الله هذا بعد ما أرم؟ قال: "نعم، يبعث الله هذا، يُميتك، ثم يُحييك، ثم يدخلك نار جهنم"، فأجابه القرآن الكريم عن هذا الاستبعاد بمنطق الفطرة ومنطق الواقع القريب المنظور؛ فقال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ يس:78 ـ 89، كما روى الحاكم، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

4 - **أسلوب تقديم الأدلَّة والبراهين على وحدانيّة الله سبحانه وتعالى بالإلهيّة والعبوديّة،** قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الروم: ٢٠، إلى قوله تعالى: "وهو الذي يبدأ الخلق ثمَّ يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم".

5 - **أسلوب ضرب الأمثال؛** فضرب لهم مثلاً من الطبيعة؛ ليدلَّهم على كمال قدرته وانفراده بالمُلك والتدبير والوحدانيّة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ فصلت: ٣٩.

وضرب لهم مثلاً من داخل أنفسهم أيضا؛ ليدعوهم به إلى إفراد الله تعالى بالعبادة؛ فقال: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الروم: ٢٨.

---

1 - تفسير الطبري 292/7 وانظر تفسير ابن كثير 159/2 ومفتاح دار السعادة 141/1.

2 - انظر تفسير ابن كثير 361/3.

ومن الأمثلة ما هو ساخرٌ من المشركين ومعتقداتهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ الحج: ٧٣.

6 - **أسلوب الإنكار على الكفّار والتعجّب من حالهم وجهلهم بالحقائق**، وإهمالهم للتفكير في أنفسهم وفي آلهتهم؛ فهم يعبدون ما ينحتونه ويصنعونه بأيديهم، مع أنَّ المعبود الحقَّ ينبغي أن يكون هو الصانع لا المصنوع، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الصافات: 95 ـ 96.

7 - **أسلوب التذكير والتخويف**؛ فالقرآن الكريم يلجأ في كثيرٍ من الأحيان إلى أن يقصّ على الناس نبأ الأخيار والفجّار في الأمم السابقة، وما آل إليه أمرهم؛ ليذكّرهم بالحقائق التي نسوها أو تناسوها؛ فيعتبروا بغيرهم قبل أن يكونوا عبرةً لغيرهم، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ القمر: ٩ إلى قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ ﴾ القمر: ٤١ .

8 - **أسلوب الترغيب في الإيمان بالله وتوحيده في العبادة والتنفير من الكفر والابتعاد عن الشرك**؛ فإنَّ القرآن الكريم ذكر بعض الأمور المحسوسة التي لا يشكُّ عاقلٌ في عدم تساويها؛ ليصل أصحاب العقول المستنيرة عن طريق ذلك بأنَّ المتضادات المعنوية –كذلك– لا تتساوى؛ فلا يتساوى المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضالّ، ولا أصحاب الجنَّة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها؛ فإنَّ بين هذه الأشياء من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، من ذلك قوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ فاطر:19 ـ 22.

9 - **أسلوب إثارة النفس البشريّة بطرح السؤال وتكراره بعرضٍ رائعٍ مقنعٍ لا يحتمل إلا إجابةً واحدة**، وبطريقةٍ تأخذ القلوب والعقول معاً، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النمل:60 ـ 64.

10 - **أسلوب القصص**؛ فالقرآن استخدم الأسلوب القصصيَّ الرائع في أخذ النفس البشريّة لقصَّةٍ لها بدايةٌ وأحداثٌ ونهاية، وكأنَّها في نزهةٍ خالدة، حتى يصل بها إلى الإقرار بالتوحيد، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٨ ، ونرى ذلك جليّاً أيضاً في القصَّة الرائعة لإبراهيم عليه السلام، وتجربته الفريدة مع الكوكب والقمر والشمس، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأنعام: ٧٩.

11 - **أسلوب دعوة المخالفين له أن يأتوا بالبراهين والأدلّة إن كانوا على حقّ**، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ الأنعام:148، وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النمل: ٦٤

المحاضرة (02)

منهج القرآن الكريم في استدلاله على إمكانية البعث

لقد نهج القرآن الكريم في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه منهجا قويما يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس، ويقع منه تحت تأثير السمع والبصر، وبين ما تقرره العقول السليمة، ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة، وتلك الطريقة تميز بها القرآن الكريم مما لا تجده في كتب الحكمة النظرية.

وكان منهج القرآن ن في استدلاله على البعث كما يلي:

أولا: الاستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثم أحياهم، كما أخبر الله تعالى عن ذلك ومنهم:

1 – صعق السبعون رجلا من قوم موسى ثم بعثهم: وهم السبعون الذين لم يعبدوا العجل، وكانوا من خيرة بني إسرائيل، والذين اختارهم موسى لميقات الله في جبل الطور، والذين صعقوا حين طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة، ثم بعثهم الله: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ البقرة: 55 ــ56.

2 – المضروب بعضو من أعضاء البقرة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: 72 ــ 73، قيل إن المقتول ضرب بعضو من أعضاء تلك البقرة التي أمرهم الله إن يذبحوها كما قال موسى لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ البقرة: 67، فلما ضرب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان.

3 – الذين أخبر الله عنهم وهم ألوف هربوا خوفا من الوباء وحذرا من الموت: بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ ﴾ البقرة: 243.

وهؤلاء قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء ففروا هاربين، قال ابن عباس رضي الله عنه: " كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون، وقالوا نأتي أرضا ليس بها موت فأماتهم الله تعالى، فمر بهم نبي فدعا الله فأحياهم.

4 – قصة عزير الذي أماته الله وأحياه: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: 259.

5 – سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة: 260.

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام هذا أسبابا منها: أنه لما قال للنمرود (ربي الذي يحي ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة.

أما قوله تعالى: (فصرهن إليك) فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أوثقهن فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءا فذكروا أنه عمد إلى أربع من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءا، قيل أربعة وقيل سبعة، قال ابن عباس: أخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل.

فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعيا ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته".

6 – ما أخبر الله به عن عيسى عليه السلام من أنه كان يحيي الموتى بإذن الله كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ آل عمران: 49.

7 – ما أخبر الله من قصة أصحاب الكهف

وهذه الأدلة المتقدمة أدلة مادية حسية، وقعت كلها لتدل على أحياء الموتى بعد مماتهم، وهذا برهان قطعي على القدرة الإلهية، وقد أخبر الله ورسله عن وقوع البعث والحشر، فوجب القطع بذلك، لأنه أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته.

ثانيا الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى

ومن الآيات الدالة على ذلك ما يلي:

1 – قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ الحج: 5 ــ 7.

في هذه الآيات دليلان على إمكان البعث، أحدهما دليل في الأنفس والآخر دليل في الآفاق، فأما الدليل الذي في الأنفس فهو ما اشتمل عليه صدر الآية وهو متعلق بالنشأة الأولى، وأما الدليل الآفاقي فهو قوله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾.

وهو الاستدلال بخلق النبات على إمكان البعث كما سيأتي.

1 – قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ يس: 78 ــ 79.

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا قال رسول الله ﷺ: " نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار" ونزلة هذه الآيات من آخر يس.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن العاص بن وائل أخذ عظما من البطحاء ففتته بيده ثم قال رسول الله ﷺ: "نعم يميتك الله ثم يدخلك جهنم" قال: ونزلت من آخر يس.

وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص أو فيهما فهي عامة في كل من أنكر البعث، ذكره ابن كثير.

3 – قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الإسراء: 49 ــ 52.

إن شبهات المنكرين للبعث تكاد تكون متجانسة لأنها تدور حول استبعاد جمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة الحياة إليها بعد فنائها وهذه الشبه لا تكون إلا بالقدح في كمال علم الله المحيط بكل شيء وكمال قدرته على كل شيء، وقد قام البرهان على كمال العلم والقدرة لله تعالى، فلا وجه للاستبعاد والاستغراب بعد ذلك، وفي قوله تعالى: (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم)، يعني به أنكم مهما تفرقتم وعلى أية حال كنتم فالله قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى، مع أن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمة وبين قبول الحياة وذلك أن العظم قد كان جزءا من بدن الحي ، أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة.

وفي قوله تعالى: (فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ)، استدلال بالنشأة الأولى على الثانية وهذا هو الشاهد من الآية، أما قولهم (متى هو؟) فهو سؤال فاسد كما ذكره الرازي، لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها، ثم إن الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا في نفسه فقولهم متى هو؟ كلام لا تعلق له بالبحث الأول فانه متى ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه، فأما أنه متى يوجد فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل بل إنما يمكن إثباته بالدلائل السمعية فان أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف وإلا فلا سبيل إلى معرفته.

2 – قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الروم: 27، في هذه الآية استدلال على البعث بالقياس الأولوي، وفي قوله تعالى : (وهو أهون عليه) ضرب مثل لأنه لا يوجد بالنسبة لله تعالى شيء هو أسهل وشيء هو أصعب وإنما المقدورات عندنا نحن متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا، ولما كان إيجاد شيء لا من شيء مستحيلا منا، وإيجاد شيء من شيء ممكنا استعار كلمة أفعل، وضرب ذلك مثلا، ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيء لا من شيء قال: (وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ) وذلك مطرد في سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة والرحمة والرضى والغضب، وكل صفة وصف بها الإنسان من ذلك فان لله تعالى من ذلك ما يليق بجلاله وعظمته وللمخلوق ما يليق بعجزه وضعفه.

3 – قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾مريم: 66ـــ 67.

بهذا المنطق الصحيح والبرهان القاطع يرد القرآن الكريم على ذلك المنكر ويجادله في أسلوب هادئ محكم فيلزمه الحجة الواضحة في أقل من نصف سطر، وفي الآية كما ترى استدلال على المعاد بالنشأة الأولى.

ثالثا: الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان، مثل السماوات والأرض، فان خلقها أعظم من خلق الإنسان، ومن الآيات الدالة عليه ما يلي:

1– قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الإسراء: 99.

2 – قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يس: 81.

3 – وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأحقاف: 33.

وجميع الآيات السابقة وما في معناها من الآيات أكبر برهان على قدرة الله المطلقة التي لا تقيد بقيود ولتنتهي عند حدود، فان تلك الآيات الكونية مما هو معروف ببداهة العقول أن خلقها أعظم من إعادة خلق الإنسان.

رابعا: الاستدلال على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة: ومن الآيات ما يلي:

1 – قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: 57.

2 – قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ فاطر: 9.

3 – قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فصلت: 39.

4 – قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ الرعد: 4، وقوله: ﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ ﴾الرعد: 5.

وفي هذه الآيات السابقة استدلال بتبدل أحوال النباتات من حياة إلى موت فحياة، وسلب خاصية النشوء والنماء في بعض النباتات فتهمد وتتفتت ثم تسقى بالماء فتعود إلى إليها تلك الخاصية، فلو كان مستحيلا إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات المختلفة بعد موتها لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولى ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات والعبر منها ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والاستقرار، وقد تقدمت المشابهة بين إعادة الحياة إلى النبات بالمطر وإعادة بناء الأجساد وإنباتها بالمطر الذي يجعله الله عند البعث وهو مطر كمني الرجال فتنبت منه الأجساد، وفي قوله تعالى: (وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ).. الآية إشارة إلى إن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث ومعناه: إن كان لك عجب من شيء فمن إنكارهم البعث، فاعجب لأن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه، وليس البعث مما ندر، وهم يشاهدون أحياء الأرض بعد موتها، واكتساء الأشجار بعد عريها، وعود النهار بعد زواله، والليل بعد ذهابه، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فان الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى.

خامسا: الاستدلال على إمكان البعث بحصول أحد المتضادين، فان الإحياء بعد الموت لا يستنكر من حيث أنه يحصل الضد بعد حصول الضد، إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى، لأنه لما جاز حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت؟ فإن حكم الضدين واحد قال تعالى مقررا لهذا المعنى: ﴿ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴾ الواقعة: 60.

سادسا: الاستدلال على البعث والإعادة بإخراج النار من الشجر الأخضر:

1 – قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴾ يس:80.

2 – قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ٧٢ ﴾ الواقعة: 72.

وفي الآيتين السابقتين استلال بتوليد النار مع حرها ويبسها من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته، قال الفخر الرازي في قوله تعالى: (ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا)، الآية "ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به حياة سارية فيه وهي كحرارة جارية فيه، فان استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فإن النار في الشجر الخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب، وأنتم تحضرون حيث منه توقدون وأن استبعدتم خلق جسمه فخلق السماوات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه، فإن الله خلق السماوات والأرض"، وفي هذا عبرة عظيمة فان الله تعالى جمع في الأخضر بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب، وفي قوله تعالى: (أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ) الآيات إما أن يراد من الشجرة النار الشجرة التي توري النار منها بالزند والزندة **كالمرخ والعفار**، أو يراد بها الشجرة التي تصلح لإيقاد النار، كالحطب فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار، ووجه دلالة النار على البعث أن النار تكمن في الشجر والحجر ثم تظهر بالقدح وتشب بالنفخ، فالحجر، والشجر كالقبر والقدح والنفخ كالنفخة في الصور.

سابعا: الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء، فإن الله تعالى لم يخلق الناس عبثا ولن يتركهم سدى قال تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾ القيامة: 36.

وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾ المؤمنون: 115، فعدل الله وحكمته وإحقاقه الحق وإبطاله الباطل وإعطاؤه كل ذي حق حقه وتميزه بين الخبيث والطيب والمحسن والمسيء كل ذلك يأبى إلا أن يكون هناك يوم آخر بعد نهاية الدنيا ينال فيه كل إنسان جزاؤه وما يستحقه من الثواب والعقاب على ما قدم من خير أو شر.

فإننا نرى أناسا يفارقون الدنيا وهم ظالمون لم يقتص منهم، ونرى أناسا آخرين يفارقون الدنيا مظلومين لم ترد إليهم مظالمهم، ونرى أشرارا في الدنيا منعمين، ونرى أخيارا فيها معذبين، فإذا ذهب كل إنسان بما فعل إن ظالما أو مظلوما محظوظا، أو مهضوما كان ذلك خدشا في عظمة الألوهية وعدلها وقضائها، فلابد إذن من يوم يحضر الجميع فيه بين يدي الله ليقتص من الظالم للمظلوم ولينال كل من المحسن والمسيء جزاءه كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنبياء: 47.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الجاثية: 21، ولهذه المعاني قال بعض الحكماء: " ثبت أن الله عز وجل حكيم والحكيم لا ينقض ما بنى إلا لحكمة أتم من حكمة النقض ولا يجوز أن تكون أنقص ولا مماثلة على مالا يخفى".

ثامنا: الاستلال على البعث بحصول اليقظة بعد النوم، فإن النوم أخو الموت واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام: 60، ثم ذكر عقبه أمر الموت والبعث فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ الأنعام: 61 ــ 62، قال تعالى في آية أخرى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الزمر: 42.

والمراد منه الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر كما ذكره الرازي وغيره.

هذه لمحة موجزة عن إمكان البعث وتحقق حصوله في ضوء القرآن الكريم.

المحاضرة (03)

منهج القرآن في تقرير عقيدة النبوة

مقياس التفسير والحديث الموضوعي، سنة ثالثة دعوة وثقافة إسلامية. المحاضرة (03) **الدكتور: مصباح موساوي**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين... أما بعد:

1- ارتباط النبوة بالأصلين الإيمانيين: "الملائكة، والكتب الإلهية"[1]:

فقد لاحظنا أن القرآن الكريم يربط الأصلين الإيمانيين، وهما الإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب الإلهية، بموضوع النبوة، يقول تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)، (البقرة:285)، وقد تكلمنا عنالإيمان بالله -سبحانه وتعالى-

1 ــ راجع: المنهاج القرآني في التشريع للدكتور/ عبد الستار فتح الله: صـــ 376، وما بعدها.

وما يتبعه من حقائق وقضايا، فإذا أردنا أن نتكلم عن موضوع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في ضوء القرآن الكريم، فإننا نقدم ذلك بالأصلين: الملائكة، والكتب الإلهية بإيجاز، وهما أصلان من أصول الإيمان في شريعة الله تعالى، وقد ألزمنا الله تعالى وجوب الاعتقاد بوجود الملائكة، ومهماتهم، وأحوالهم، على النمط الذي فصله في كتابه الكريم.

ومن ذلك أولاً: أنهم ذوات حقيقية الوجود، متشخصة الأعيان، وقد وصفهم الوحي الإلهي بكل صفات الذوات المتشخصة المتميزة، مثل: الجسمية، والصعود، والنزول، والتجسد في صورة البشر... ونحو ذلك، وبكل صفات الذوات العاقلة المكلفة، مثل: العبادة، والتسبيح، والكلام، وفهم الأمر والخطاب، ورد الجواب، وتنفيذ التكاليف المادية والمعنوية، ومن ذلك قوله -سبحانه وتعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)، (فاطر:1)، وتسمى هذه السورة أيضًا بسورة الملائكة.

فالوصف بالأجنحة المتعددة دليل التشخص والجسمية، وإن كان لا يعلم كنهها على التعيين إلا الله تعالى، ومن أطلعه على ذلك من رسله، غاية ما علمنا أنهم ذوات لطيفة خُلِقت من نور، كما جاء في صحيح مسلم، وفُطروا على أكرم الوجوه، قال تعالى: (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ــ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ــ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ــ كِرَامٍ بَرَرَةٍ)، (عبس:13-16)، وقال سبحانه: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)، (الانفطار:10-12)، فوصفهم الله تعالى بالحفظ، والكتابة، والعلم، وأثبت لهم الأيدي، وغير ذلك.

ثانيًا: للملائكة وظائف شتى في الدنيا والآخرة، خلقهم الله تعالى لها، وكلفهم بها، ومنها:

أ- التجرد التام لعبادة الله تعالى، وطاعته بصورة مطلقة، لا تردد فيها، ولا عصيان، ولا سأم، ولا فتور:

قال تعالى: (فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ[(فصلت:38)]وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ــ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ)، (الأنبياء:19، 20)، ويستوي في هذا أشدهم، وأجلهم، ومن دونهم، قال تعالى عن جهنم: (عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[(التحريم:6)، وقال سبحانه: (لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ)، (النساء:172).

وفائدة هذه العقيدة هنا إبطال كل ما ادعته الجاهلية في شأن الملائكة من جعلهم بنات الله، أو شركاءه، أو أن لهم تصرفًا ذاتيًّا في تدبير الكائنات، وقد رد عليهم القرآن الكريم في مواطن كثيرة، ومنها هذه الآيات الجامعة؛ قال تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ــ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ــ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ــ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)، (الأنبياء:26-29).

ب- السفارة بين الله تعالى ورسله -عليهم السلام- ليبلغوهم أوامر الله -عز وجل- وتكاليفه، وشرائعه، وهداياته:

وهذه من أهم وظائفهم، وأيمنها خاصة على الجنس البشري، حتى إن اسم الملائكة نفسه قد أُخذ من هذا، كما يقول الراغب -رحمه الله- إذ أصل الملك: مألك، والمألك، والمألكة، والألوكة هي الرسالة، كأنه من تسمية الشيء بأهم أوصافه وأجل مهماته، وقد كرر الله تعالى هذه الخصوصية في كثير من الآيات قال تعالى: (اللهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ)، (الحج:75) ويقول سبحانه: (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ)، (النحل:2).

جـ- القيام بما لا يُحصى من المهام، والأعمال التي كلفهم الله تعالى بها فيما يتعلق بالمخلوقات الأخرى في شئونها المادية، والروحية:

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ــ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)، (فصلت:30، 31)، هذا تبشير للمؤمنين، وفي مقابله إهانة الكفار، وتوبيخهم عند الموت كما قال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)، (الأنفال:50)، وأيضًا من مهماتهم إهلاك الأمم المكذبة حين يأتي وعد الله تعالى بعد طول إمهال للمجرمين، وقد يتشخصون في صور إنسانية كاملة، كما جاء في قصة الملائكة

الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط، ونزولهم في هيئة الضِّيفان على إبراهيم، ولوط –عليهما السلام– وقد قص الله تعالى ذلك في أكثر من موضع في كتابه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ــ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ــ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ــ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾،(الذاريات:31–34)، ولما حاصرهم الفاسقون من قوم لوط –عليه السلام– ظنَّا أنهم بشر، تبدت الملائكة على حقيقتها، ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، (هود:81).

وفي القرآن الكريم والسنة الصحيحة كثير من هذا مثل حضورهم مع المؤمنين مواقع الحرب، ومجالس الذكر، ومجامع العلم، ودعائهم لهم في الدنيا، واستغفارهم، وترحيبهم بهم في الآخرة، وشفاعتهم لهم فيها. . . وغير ذلك، وقد أمرنا الله تعالى أن نؤمن بالملائكة جملة، وبمن ورد اسمه تفصيلًا كجبريل، وميكائيل، وأن نتزههم عن كل ما يشين، أو ينقص كمال عبوديتهم، وتجردهم للخير والحق الذي فطرهم الله عليه؛ ليكونوا القوة المتمحضة للخير في هذا الكون في مقابل قوة الشياطين المتمحضة للشر.

هذا، وإن لخلق الملائكة الكرام حِكَمًا جمة، ولهذا الاعتقاد الذي كُلفنا به بشأنهم فوائد جليلة تتصل أساسًا بهذه الشريعة الإلهية باعتبار الملائكة هم سفرتها؛ وبالدار الآخرة باعتبارهم مسجلي أعمالها، وشهود حسابها، وخزنة جزائها، وبهذه الدنيا باعتبارهم من أولياء مؤمنيها، وغير ذلك من المهمات في هذا.

2– الكتب الإلهية التي أنزلت على الرسل –عليهم السلام[1]:

نأتي إلى الحديث عن الإيمان بالكتب الإلهية:

وهذه الكتب الإلهية أوحى الله تعالى بها إلى أنبيائه في كل العصور، وكان منها ما يُوحى بلفظه، وبصيغة محددة من قبل المولى –جل شأنه– ومن الوحي ما يأتي بمعناه، ويعبر الرسول عنه بما يؤدي هذا المعنى بألفاظه، والأول هو الكتب السماوية التي أُمرنا باعتقادها، ووجوب الإيمان بها جملة، وعلى الغيب ما علمنا منها وما لم نعلم، وتفصيلًا فيما ورد لنا عن طريق الوحي الإلهي معينًا محددًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾، (النساء: 136) وهذا في الكتب التي أنزلها الله تعالى جملة، وقد ورد ذكر بعضها تفصيلًا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ــ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، (الأعلى:18– 19)، وقال –عز شأنه: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ــ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، (النجم:36–37)، وسمى الله تعالى الكتاب الذي أنزل على موسى التوراة، والكتاب الذي أنزل على عيسى الإنجيل، وما أنزل على داود سماه باسم الزبور كما قال تعالى: ﴿وقفينا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾،(المائدة:46)، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾، (النساء:163).

والكتب الإلهية تمثل أوعية التعاليم الربانية للبشر، وهي جميعًا كتب هداية وإرشاد في المقام الأول، وكل ما يأتي في تضاعيفها من الحكم، والأمثال، والقصص، والأخبار، وحقائق العلم، وعجائب الكون في: الزرع، والضرع، والأنفس، والآفاق، وفي تصريف الرياح، وتسخير السحاب، وانتظام الفلك، كل ذلك يأتي تبعًا للغرض الأول، أو وسيلة له؛ إذ المقصود هداية البشر إلى ربهم، وإلزامهم بتعاليمه التي تحقق سعادتهم في الدارين، والإيمان بالكتب السماوية إيمان بالشريعة كلها التي أوحاها الله تعالى إلى رسله؛ لأن الكتاب –أيّ كتاب إلهي– يضم إما قاعدة كلية، أو حكمًا تفصيليًّا، أو يحيل إلى بيان النبي المبعوث به، أو يقر ما شاء الله مما بعث به سابقه، كما قرر القرآن الكريم ذلك في مواضع كثيرة، وذلك عن التوراة، والإنجيل، وغيرهما.

والإيمان التفصيلي بهذه الكتب متضمن الأمرين جميعًا، أعني: وجوب الإيمان بأعيان ما سُمي لنا منها، ووجوب الإيمان بكل ما جاء فيها من القواعد، والأحكام، والدلائل، والأخبار.

---

1 ــ راجع: المنهاج القرآني في التشريع للدكتور/ عبد الستار فتح الله: صـ 380.

3- منزلة القرآن الكريم، وخصائصه، وموقفه من الكتب السابقة[1]:

منزلة القرآن الكريم:

وقد جاء القرآن العظيم في ختام الرسالات الإلهية ليكون مسك ختامها، وصوت النبوة الممدود بعد انقطاع حملتها، فهو بذاته نبوة قائمة في كل جيل بعد محمد ﷺ ولقد كان من معجزته الفذة أن الله تعالى لما ختم الأنبياء برسوله، مد الله النبوة بالقرآن العظيم مدًّا لا يقبل النسخ، وقد جاء في الحديث الشريف: "من قرأ القرآن، فقد استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يُوحَى إليه" الحديث رواه الحاكم، وصححه وأقره الذهبي، هذا بالنسبة للقرآن الكريم؛ ولذلك كان هذا القرآن معجزة النبي، ودليله، وجامع الهدي الإلهي وسبيله، فهو يضم أصول الدين، ويمثل صحيح الكتب الإلهية، والصحف السابقة جميعًا كما قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ)، (الشعراء:196)، وقال تعالى: (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ــ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)، (الأعلى:18-19)، وزبر الأولين يعني: كتبهم، ومعنى قول القرآن فيها أي: خبره، أو معانيه في هذه الكتب لاتحاد الموحي وهو الله تعالى، ولاتحاد الدين الإلهي للبشر الذي أوحاه الله،

ولكن القرآن الكريم يختص بأمور من دونها:

أولاً: أنه جاء جامعًا لكل ما تفرق في الصحف، والكتب السابقة، من أصول الدين وشرائعه، وأنه يزيد عليها بما اقتضاه فارق الزمان، وطبيعة المرحلة الخاتمة من قواعد، وأحكام تصلح للاستمرار والدوام؛ ولذلك ضمن الله تعالى هذا الكتاب كل شرائعه، وضمِن حفظه وصيانته؛ ليكون حجة لله دائمة على عباده بعد ختم النبوة، قال تعالى: (إنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، (الحجر:9)، وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ــ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)، (فصلت:41، 42)، وقد أنزله الله تعالى، وأحكم آياته، وأحكمه على وجه يعجز العالمين، ويصلح للتحدي به في كل الأجيال، ويقوم حجة ناهضة على أن الحق من عند الله، وعلى أنه هو الحق من عند الله.

وقد جعل الله تعالى من معجزة هذا الكتاب كما قال الإمام الراغب في مقدمة كتابه العظيم (مفردات القرآن): من معجزة هذا الكتاب أنه -مع قلة الحجم- متضمن للمعنى الجمّ بحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه، والآلات الدنيوية عن استيفائه، كما نبه عليه تعالى بقوله: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله)، (لقمان:27).

موقف القرآن من الكتب السابقة:

إن موقف القرآن منها ليس بِدْعًا من المواقف، وإنما هو سنة الله تعالى المطردة في الرسالات السابقة، ويتلخص هذا الموقف فيما يأتي:

أولاً: أنه مصدق لها، ولمصدرها الإلهي، ولمن جاء بها من رسل الله الأكرمين.

ثانيًا: مصحح لما وقع من تحريف أصحابها بعد الرسل -عليهم السلام.

ثالثًا: مبين لما كتموه منها من الحق.

رابعًا: مضيف إليها من الأحكام على الوجه الذي فصله القرآن؛ تتميمًا للشريعة الخاتمة.

خامسًا: هو ناسخ لبعض أحكامها على ما اقتضته حكمة الله تعالى في نسخ الأحكام، ومعظم ما وقع في القرآن من هذا النوع هو من نسخ التخفيف والتيسير؛ لأن الله تعالى كان شدد على أهل الكتاب بذنوبهم، ثم لما بعث محمد ﷺ خفف عنهم كما قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)، (الأعراف:157).

فالقرآن الكريم الآن هو كلمة الله تعالى الوحيدة المحفوظة، والمرجع الكلي الجامع لتعاليم الله النهائية لعباده، وهو يوجب على أتباعه الإيمان بكتب الله تعالى جملةً وتفصيلًا، ويقرر أصولها، ويصدق حقائقها، ويصحح ما لحقها من تحريفات أهلها؛ ولذلك أقامه الله تعالى حَكَمًا على

---

1 ــ راجع: المنهاج القرآني في التشريع للدكتور/ عبد الستار فتح الله: صـ 381، وما بعدها.

الكتب السابقة، وجعله معيارًا لكل ما يُنسب للوحي الإلهي من الشرائع، والأحكام، قال تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ)، (المائدة:48)، ومعنى مهيمنًا عليه أي: شاهدًا، وقيل: رقيبًا، وقيل: مؤتمنًا، وقيل: قَفَّانًا، يقال: فلان قفان على فلان: إذا كان يتحفظ أموره، فقيل: القرآن قفان على الكتب؛ لأنه شاهد بصحة الصحيح منها، وشاهد بسقم السقيم منها، كما قال الإمام السجستاني في كتابه (تفسير غريب القرآن) والذي نريد تقريره هنا هو أن البشرية إذا أرادت أن تتعرف إلى كلمة الله لعباده محفوظة مصونة فليس أمامها إلا القرآن الكريم، وما ألزم به من اتباع الرسول ﷺ وأخذ ما جاء به، والانتهاء عما نهى عنه.

وهو كتاب لا يتنكر لتاريخ النبوات، وما جاء به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من كتب وأصول، وإنما هو يوجب الإيمان بذلك إيجابًا، ويجعل هذا أحد أصول الاعتقاد فيه، ثم هو يخضع ذلك لسنة الله المطردة الملزمة في باب النبوات، بأن يصدق التالي سابقيه، وأن يتبع أصحاب السابق ما جاء من الله على لسان لاحقيه، وهذا هو كتاب الله العاقب، ورسوله الخاتم مصدقًا لما سبق، بل يوجب هذا التصديق إيجابًا، ويدعو إلى اتباع البشر كافة لدين الله تعالى، كما قال الله: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)، (الأعراف:158).

4- النبوة، والرسالة في ضوء القرآن الكريم[1]:

ننتقل إذن الآن إلى الإيمان بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهم صفوة البشر من الرجال الذين اصطفاهم رب العالمين؛ ليبلغوا عنه رسالته، ثم هم أيضًا بقدر الله، وحكمته الطريق المتفرد لمعرفة التكاليف الإلهية في كل شئون الحياة من أعلاها إلى أدناها؛ لذلك كان الإيمان بهم أصلًا أصيلًا من ركائز هذه الشريعة الإلهية الجامعة، خاصة إذا استحضرنا هنا ما قرره الله تعالى من أنه شرع هذا الدين؛ ليقود الناس على سلامة، واستقامة إلى سعادتهم؛ لذلك كان الإيمان برسل الله تعالى مدخلًا أوليًّا للإيمان بكافة تعاليم هذه الشريعة الإلهية، والرسل بهذه الحيثية، وببلوغهم الغاية في العبودية لله تعالى بلغوا هذه المنزلة من أصول الإيمان، وليس في هذا خروج بهم عن دائرتهم البشرية، ولا هي دعوة إلى تقديسهم على نحو ما قدست الأمم الضالة زعماءها، فأضفت عليهم صفات الألوهية، وخوارق القدرة كذبًا وبهتانًا، وقد فصل الله تعالى كل ما يتعلق بهذا الأصل تقريرًا لحقائقه، وبيانًا لجوانبه، وردًّا لشبه منكريه الداحضة التي أثاروها في كل جيل.

وهذا إيجاز لبعض ما جاء في هذا الأصل العظيم:

أولاً: يقرر الحق -سبحانه وتعالى- أن الرسالة هبة إلهية يمنحها الله تعالى لمن شاء من عباده على علم وحكمة، وأنها ليست من ضروب الكسب الاجتهادي، أو مما يعطى بالدعاوى والأماني، أو بمناصب الدنيا ومنازلها، وقد ورد في القرآن الكريم ردًّا على الكفار حينما زعموا أن النبوة مما ينال بشيء من هذا، فقال تعالى: (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ــ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ)، (الزخرف:31-32)، والآية الكريمة تستنكر اقتراحهم بنزول الوحي على حسب المناصب، والمنزلة الاجتماعية والسياسية، وتبين أن الرسالة قسمة إلهية لا سبيل إلى التدخل فيها لأحد من الخلائق، وحين شرطوا نزول الوحي عليهم ليؤمنوا، أخبرهم الله تعالى أنه وحده هو الأعلم بمواضع الرسالة، ومواقعها فلا يجعلها إلا في أهلهاممن يستطيعون حمل أمانتها، وأثقالها، قال تعالى: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)، (الأنعام:124).

ولذلك يأتي القرآن الكريم بلفظ جامع بكل ما في الرسالة من معنى الهبة الإلهية، وما تقوم عليه من حكمة الاختيار، والبصر بأنقى العناصر الإنسانية كما قال تعالى: (اللهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ)، (الحج:75)، ويقول تعالى خطابًا لموسى -عليه السلام: (يَا مُوسَى

1 ــ راجع: المنهاج القرآني في التشريع للدكتور/ عبد الستار فتح الله: ص: 386- 395.

إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)، (الأعراف:144)، والاصطفاء -كما قال الإمام الراغب- هو تناول صفو الشيء، كما أن الاختيار تناول خيره، واصطفاء الله تعالى بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافيًّا من الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبُحُكْمِه، وإن لم يوجد ذلك من أول الأمر.

ثانيًا: الله -سبحانه وتعالى- يتولى من يصطفيه للرسالة بالإعداد، والرعاية، والتربية حتى يصل به إلى منزلة عليا من الكمال البشري، يتهيأ بها لتلقي الوحي الإلهي الذي لا يطيقه عامة البشر؛ ولذلك كانوا قبل الرسالة وبعدها على أتم، وأمثل ما يكون عليه البشر من السمو الخلقي والنفسي، والاستعداد العلمي والعملي المناسب لرسالتهم، كما قال تعالى عن يوسف -عليه السلام- وهو الذي تربى بعيدًا عن أهله ووطنه، وتقلب في قيود الرق والسجن، وشب في بيئة عمادها الوثنية والضلال، ومع ذلك كان مثلًا أعلى في التاريخ كله، وعَلَمًا فيه على الإيمان والطهر والعفاف بفضل الله تعالى، ورعايته، وإعداده لنبيه كما قال تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)، (يوسف:22)، وقال تعالى: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)، (يوسف:24).

ومن صفاته التي قررها القرآن على لسانه: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)، (يوسف:55)، وقد جاء مثل هذا عن موسى -عليه السلام- قال تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)، (القصص:14)، وتقول بنت شعيب عنه لما ذهب إلى مدين: (إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ)، (القصص:26)، وهو مثل سلفه قد نشأ في بيئة الترف والكفر، وفي قصور أعتى الفراعين، ولقد وصف الله تعالى رسله كثيرًا بهذا الوصف الجامع: (وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا)، (الأنبياء:79)، ويقول عن خاتم رسله ﷺ: (وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)، (النساء:113).

ثالثًا: لقد أيدهم الله تعالى بالمعجزات الخارقة للعادة؛ تصديقًا لهم في دعوة النبوة أولاً، وإقامة للحجة على البشر بدليل دامغ لا يُرَدّ ثانيًا، وقطعًا لطريق الادعاءات الكاذبة ثالثًا، فإنه ما ادعى إنسان النبوة قط ثم مكنه الله تعالى من معجزة على وفق مراده إلا إذا كان صادقًا، وكأنه تعالى يقول: صدق عبدي فيما يُبلّغه عني، وبذلك تميز المُحق من المبطل في هذا الباب، وصان الله تعالى هذا الأمر الخطير -النبوة- من الخلط والتلبيس؛ حتى لا تكون فتنة، وحتى لا يكون للمبطلين في الأرض على الله تعالى حجة، وقد قص القرآن الكريم معجزات كثيرة لرسل الله تعالى، كناقة صالح، وعصا موسى، وخلق عيسى للطير -بإذن الله- وفي كل مرة كانت المعجزة من جنس ما برع فيه القوم حتى يبهتهم الدليل الإلهي، وحتى يأخذهم في مواطن قوتهم، لا في مواطن ضعفهم.

وقد جاء محمد ﷺ بمعجزة الدهور، وخارقة العصور، وبآية ذات خصائص عظمى تناسب أمرين عظيمين: تناسب بلاغة العرب، وطبيعة الرسالة التي أريد لها الدوام، والاستمرار، والخلود، فتحدى بها العرب، وهم أرباب البلاغة، والبيان فعجزوا، وانقطعوا، ولو عن الإتيان بسورة من مثله، وقد سجل القرآن الكريم على الخلق جميعًا أن هذا هو عجز الأبد، وانقطاع الدهر، قال تعالى: (قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)، (الإسراء:88)، وقال تعالى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)، (البقرة:24).

رابعًا: قد قرر الله تعالى ضرورة الرسالة للعباد، وأنها طريق الله تعالى لتعليمهم دينه، وشريعته، وحقوقه، وصفاته العلا، مهما كان نصيبهم ابتداء من السمو الأخلاقي والاجتماعي، قال تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا)، (الإسراء:95).

والآية الكريمة تقرر أمرين:

الأول: ضرورة الرسالة، ولو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على غاية الأمان، والاطمئنان فيها، وما فائدة الرسالة حينئذٍ؟ فائدتها: تعليم العباد حقوق ربهم عليهم، وتعبيدهم لسلطانه وأمره، وإرشادهم إلى ما فيه سعادة الأبد لهم.

الأمر الثاني: ضرورة التناسب بين الرسول، وقومه؛ ردًّا على استنكار بعض الكفار حين قالوا للرسول: (أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً)، (الإسراء:94)، ثم مهما كان نصيبهم انتهاء أيضًا من القوة، والمنعة، والرخاء الاقتصادي، والتقدم الحضاري، والعلمي، فالرسالة والنبوة لازمة لهم رغم هذه الدعاوى التي تخدع الناس عن حتمية الرسالة لسعادة الدنيا والآخرة؛ وبذلك يسجل القرآن الكريم أن الرسالة مع هذه المظاهر المادية هي أوجب، وأن الناس إليها حينئذٍ أفقر وأحوج؛ لما تشيعه هذه المظاهر المادية، والحضارية في الناس من تدهور شامل في الاعتقاد والسلوك، فقد أفسدت عادًا قوّتُهم، وأعمت ثمود حضارتُهم، وأورد فرعونُ وملؤه قومَهم النار بما لهم من سلطان في الأرض، وبسطة في الرزق والعلم والمال، والأمثلة على هذا كثيرة، منها: ما قاله هود -عليه السلام- لقومه كما جاء في القرآن الكريم: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ـــ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ـــ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)، (الشعراء:128-130).

فهذه مظاهر مشتركة بين عامة الحضارات حين يعتصر مترفوها أممهم، فيتكدس لديهم فائض من الأموال، لا يجدون وسيلة لإنفاقه إلا السفه الجنوني بإقامة التماثيل، والنصب، والأبراج، وأمثالها، وكذلك التفنن في إقامة الأبنية، والقصور، والأهرامات، والمسلات، وغير ذلك مما يُصنع لتخليد الذكرى في أمثال هذه المجتمعات ذات المقاييس الفارغة.

أما الصفة الثالثة: (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)، فهي العنف، والقسوة التي تصاحب هذه الحضارات؛ لانطماس القلوب، وجمودها، وتحجرها حين تقوم على معايير مادية جافة، والآيات الكريمة واضحة الدلالة على أن هذا الغنى، وهذه الوفرة المادية التي يسرت إقامة هذا العبث، وهذه القوة العارمة التي قالوا عنها كما قص القرآن: (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)، (فصلت:15)، كل ذلك لم يُغْنِ شيئًا عن الرسالة، بل كان من موجباتها، ومن مبررات الإسراع بها ضرورة رد الناس إلى عبادة ربهم وخالقهم، وتخضيعهم لسلطانه الأعلى، ومنهاجه الهادي؛ لينقذهم من تفاهة الأهداف، ومن عبث الحياة التي أفسدوها، وليقودهم إلى سعادة الآخرة التي أسقطوها من حسابهم وجاءت الرسل مذكرة بها، وداعية إليها، ومركزة عليها.

من المثال الثاني ما قاله صالح -عليه السلام- لقومه (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ـــ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ـــ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ـــ وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ـــ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ـــ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ـــ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ)، (الشعراء:146-152)، وهذه آيات غنية عن الشرح؛ لدلالتها الناطقة بما كانوا عليه من قوة وحضارة، ومن غنى، ولكنهم انحرفوا عما يجب أن يكون عليهم من إيمان بالله، وإصلاح للأرض على أساس معايير الوحي، لا معايير المترفين المفسدين من زعمائهم الذين يقودون الناس إلى دروب الفساد، ويزعمون أنهم مصلحون، وهم المفسدون لكل معالم الحق التي أرادها الله لخلقه، وهم الصادون عن سبيله، القاطعون طريق الآخرة على عباده، والأمثلة كثيرة كما ذكر الله تعالى عن فرعون وقارون وهامان، وكما قص عما لقيه النبي ﷺ من طواغيت قريش.

خامسًا: لقد قرر القرآن الكريم أن هذه الرسالة ليست ضرورة فحسب، وإنما هي هداية، ورحمة، وفضل عظيم من رب العالمين كان خليقًا أن يُتلقى بالقبول والسرور، لا بالجحود والنكران، قال تعالى: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ)، (الزخرف:32)، فسمى النبوة بالرحمة، وقال تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)، (يونس:58)، يقصد النبوة، ويقول تعالى عن نبوة محمد ﷺ: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)، (الأنبياء:107) ولهذا كانت الرسالة عامة شاملة للأمم جميعًا، كما قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ)، (فاطر:24)، (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)، (النحل:36)، وبذلك قامت الحجة، وعمت الرحمة، وبلغت هداية الله تعالى ما بلغ الليل والنهار.

سادسًا: ومن هنا كان الواجب علينا أن نؤمن إجمالًا بهؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأنهم بلغوا حدًّا من الكثرة لا يعلمه إلا الله تعالى، وبذلك وجب علينا الإيمان تفصيلًا بمن قص الله تعالى علينا أخبارهم، أو أسماءهم في كتابه الكريم، وعددهم خمسة وعشرون رسولًا، منهم ثمانية عشر رسولًا في الآيات من ثلاث وثمانين إلى ست وثمانين من سورة الأنعام، والباقون هم: آدم، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، ومحمد -صلى الله عليهم أجمعين.

فهؤلاء خمسة وعشرون رسولًا يجب الإيمان بهم بالتفصيل على معنى: أنه إذا ذكر اسم واحد منهم لا بد أن نقر أنه رسول الله حقًّا وصدقًا؛ لأنه ذكر باسمه في كتاب الله تعالى، فمن الإجمال قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ)، (غافر:78)، وفي مقام عدّ القرون التي أهلكت بعد تكذيب الرسل يقول -سبحانه وتعالى: (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)، (الفرقان:38) ويقول عز شأنه: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ)، (إبراهيم:9)، يعني بالتفصيل، أما بذكر الإجمال فنحن نعلم أنهم كثيرون، وهؤلاء جميعًا جملة وتفصيلًا أمرنا الله بالإيمان بهم أمر فرض، ولزوم لا يقبل الإيمان كله إلا بذلك كما قال ربنا: (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)، (البقرة:136).

وقد عدّ الله تعالى التفريق بين الرسل في الإيمان بهم كفرًا بَوَاحًا قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ــ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا)، (النساء:149-150)، أي: يقولون: نؤمن ببعض الرسل، ونكفر ببعض، ويريدون بذلك أن يمسكوا العصا من وسطها -كما يقال- فيتوسطوا بين الكفر والإيمان، وهذا وإن كان أقل سوءًا من الكفر المطلق إلا أنه هو الآخر كفر أكيد؛ إذ الحق في الاعتقاد لا يتجزأ، والكفر ببعض الرسل هو إخلال بأصل من أصول الإيمان، فهو كالكفر بالجميع في النتيجة؛ ولذلك تؤكد الآية الكريمة الحكم عليهم بأنهم كفار حقًّا بعدة أمور مثل: اسمية الجملة وهي للتأكيد، وتعريف الطرفين، وضمير الفصل، والوصف بالمصدر حقًّا، أو التأكيد به حتى لا تدع مجالًا لريبة ما في أن الوحي الإلهي قصد إلى هذا الحكم قصدًا بأنّ التفريق بين الرسل هو كفر مبين بدين الله تعالى، وما ذلك إلا لما قررناه أن مهمة الخلق هي القيام بحق العبودية لرب العالمين، وهو -سبحانه وتعالى- لا يعبد إلا بما شرع، وقد مضت حكمته ألا يعلم البشر شرعته إلا بواسطة رجل منهم يرسله إليهم؛ لذلك كان الإيمان بالرسالة من حيث المبدأ، وبالمرسلين من حيث الجملة هو مدخل العبودية المتفرد؛ ولذلك كلفت كل أمة بذلك، وكلفت الإيمان بمن ذكروا تفصيلًا، وخاصة رسولهم الذي أرسل إليهم؛ ومن ثَمَّ كانت كلمة الإسلام في كل العصور أشهد أن لا إله إلا الله، وأن فلانًا رسول الله أي: المرسل إليهم بعينه، يقولون: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن نوحًا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن صالحًا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهكذا في كل العصور.

سابعًا: هذه الرسالة ليست محض تشريف للرجال الأكرمين الذين حملوها، وإنما هي تكليف صعب، وحمل ثقيل، وأعباء باهظة المغارم والتكاليف والتضحيات في هذه الحياة؛ ولذلك كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أكثر الناس تحملًا وصبرًا، وأشدهم بلاءً وأذًى، وأعمق الناس خشوعًا وخوفًا وإخباتًا لله تعالى، وأكملهم في باب العبودية، والخضوع لرب العالمين كما قال تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)، (الأنبياء:90)، وقد بلغوا الحد الأكمل تواضعًا، ورحمة، وحَدَبًا على قومهم رغم ما لاقوه منهم من كنود وعتوٍّ؛ رجاء في إيمانهم، وطمعًا في توبتهم، واستخلاصًا لهم من براثن الكفر والشيطان، ثم من النار -والعياذ بالله تعالى- لذلك حرص الرسل أن يؤكدوا لقومهم أنهم لا يسألونهم على الرسالة أجرًا ولا مالًا، وأنهم بشر مثلهم، وظلوا في كل موطن يؤكدون عبوديتهم الخالصة لرب العالمين، وأنهم يصدعون بأمره في تبليغ الرسالة، ولا يملكون لأمره ردًّا أو كتمانا أو لَيًّا، وأنهم مسئولون بين يدي ربهم، ومحاسبون حسابًا شديدًا على هذا البلاغ، ومعذبون عذابًا عظيمًا إن عصوا رب العالمين.

كل ذلك جاء تفصيلًا في القرآن الكريم، وكل ذلك كان يجعلهم مُثُلًا عليا محببة لا يبغضها إلا متكبر حقود، أو باغٍ حسود كما كان شأن المترفين، والجبارين من زعماء الأمم التي لم تفلح هذه الدرجة العليا من الخلق والتقوى عند الرسل في استلال سخائم صدورهم؛ لذلك لم تكن عداوتهم لكل رسول عداوة شخصية في حقيقتها، وإنما هي عداوة لمنهاجه الذي بُعِثَه، ولربه الذي أوحى له ولكل ما يمثله دينه من عقائد، وأخلاق، وشعائر، وشرائع؛ ومن ثَمَّ فإن مزاعم المبطلين على أن الإيمان برسل الله، ووجوب اتباعهم على الإطلاق هو نوع من

تقديس الرجال، أو عبادة الأبطال، وما شابه ذلك من الدعاوى هو في الحقيقة جدال بالباطل، وعكس للحقائق، وجهل أو تجاهل بأصل الأصول الذي دعا إليه كل رسول، وهو توحيد الله تعالى على ما بيناه سابقًا، ثم تمثل العبودية فيهم على أتم صورها من الخشوع، والخشية، والذل، والانقياد لله رب العالمين.

ثامنًا: وهنا جانب آخر شديد الأهمية حين يتمثل الدين على أكمل صورة في رجل من الناس يمشي على قدميه، ويأكل كما يأكل الناس، ويخضع لنفس الحاجات والظروف التي تكتنف حياة البشر عامة، ولكنه يقوم في أمته بمهمته المعصومة في تفسير الدين، وبفقهه العميق في تطبيقه، ثم هو في واقع الحياة العملية ينتصب مثلًا أعلى للمؤمنين لا يسبقونه ولا يلحقونه، ولكنهم يحتذونه، ويترسمون آثاره، ويتابعون الركض في مضماره الرحيب، وهو مضمار خليق بالمنافسة والمسابقة والمسارعة فيما بينهم، ولهم على الطريق من أنفسهم قدوة شاخصة تستحث الخطا؛ لتتابع الترقي حتى تقارب الكمال كما قال ربنا: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا)، (الأحزاب: 21).

تاسعًا: إن من أخطر ما يقرره القرآن العظيم عن مهمة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو أنهم حجة الله -تبارك وتعالى- على الناس أفرادًا وجماعات، في الدنيا والآخرة؛ ولذلك أمرهم بالصبر الطويل حتى يبلغوا رسالات الله، وحتى يقيموا الحجة على أقوامهم بالبلاغ المبين، وبذلك تسقط الحجج والمعاذير التي يتذرع بها الكفار، وإلا كانت لهم الحجة البالغة بأنهم لم تأتهم رسل من الله تعالى، قال تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، (النساء:165)، لذلك لا يعذب الله تعالى الكفار في الدنيا بعذاب الانتقام، أو بعذاب الاستئصال إلا بعد هذا البلاغ النبوي المبين قال تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)، (الإسراء:15)، وقال -سبحانه وتعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)، (القصص:59)، أما في الآخرة، فلا يُلقى بهم في النار إلا بعد أن يقيم الله الحجة عليهم ببلاغ الرسل، كما قال تعالى: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)، (الأعراف:6)، كما قال سبحانه: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاءِ)، (النحل:89)، وكما جاء في سورة النساء حينما قرأ ابن مسعود على النبي ﷺ فاستمع النبي طويلًا إلى أن وصل إلى الآية الكريمة: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا)، (النساء:41)، فأشار إلى ابن مسعود أن أمسك فنظرت فإذا عيناه تذرفان الدمع، يبكي النبي ﷺ من هول هذا الموقف أنه سيبعث شهيدًا على أمته، وكل رسول يُبعث شهيدًا على أمته يوم القيامة.

ويكرر القرآن الكريم كثيرًا لوم الملائكة لأهل النار عند دخولها، أو في أثناء عذابها بهذه الحجة خاصة أعني مخالفة الرسل في الدنيا كما قال تعالى: (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ـــ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ـــ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ـــ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ)، (الملك:8-11)، وفي سورة غافر يقص الله علينا المحاورة بين أهل النار، وبين الملائكة: (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنْ الْعَذَابِ ـــ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ)، (غافر:49-50).

ويقص الله علينا في سورة الزمر حينما يساق الناس زمرًا زمرًا إلى جهنم وإلى الجنة، كُلٌّ على حاله: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)، (الزمر:71)، فنسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يجعلنا من الناجين يوم القيامة، وأن يجعلنا من أتباع الرسل في هذه الدنيا، وأن يوفقنا إلى التزام دينه، ومنهجه الذي بعث به محمدًا ﷺ إنقاذًا لنا من ضلال الدنيا، ومن خزي الآخرة، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

5 – أصول الإيمان وترتيب القرآن لها، والفرق بين الغاية الأصلية والتبعية:

تكلمنا عن أربعة عناصر من أصول الإيمان كما كلفنا الله بها، وهي: الإيمان بالله –سبحانه وتعالى– والإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب الإلهية، والإيمان برسل الله –سبحانه وتعالى– هذه الأربعة هي التي تشَكِّل أصول الإيمان، ويبقى أصل عظيم وهو الإيمان بالآخرة، سنتكلم عنه بعد قليل –إن شاء الله.

إنما الذي نريد أن نبينه: أن القرآن الكريم له طريقة عجيبة في ترتيب هذه الأصول الخمسة، النبي ﷺ لما سأله جبريل قال له: "ما الإيمان؟ قال: الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر"[1]، فأخر اليوم الآخر؛ لأنه لم يأت بعد، وهو في نهاية المطاف.

هذا ترتيب طبيعي، القرآن الكريم يرتب أحيانًا هكذا، وأحيانًا يرتب بطريقة أخرى عجيبة لها ملحظ في غاية الجودة، وينبغي التنبه إليها، وهو أنه يقدم الإيمان بالآخرة، ويجعله رديفًا مباشرةً للإيمان بالله –تبارك وتعالى– لأن لدينا أصلين أساسيين، الغاية الأولى الأصلية هي: الإيمان بالله، والغاية التبعية في الإيمان هي: الإيمان بالآخرة، ولهذا رتَّب الله –تبارك وتعالى– هذه العناصر في سورة البقرة على هذا النمط، فقال –سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾، (البقرة:177).

وبهذا فهمنا لماذا قدم الإيمان بالآخرة على هذه العناصر؛ لأن الله –تبارك وتعالى– أراد أن يذكرنا من أول الطريق بالغاية التبعية التي هي دار الجزاء، والتي جُعلت غاية للعمل والثواب، بعد الله تعالى، نعبد الله، ونصلي، ونصوم، ونفعل كل الخيرات ابتغاء وجه الله أولاً، وأيضًا رجاء أن ندخل جنته، وأن نبتعد عن النار؛ لهذا قدمت الآخرة هنا، وفي آيات أخرى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾، (العنكبوت:36)، خصّ الأمرين باعتبارهما الغايتين الأساسيتين، وأيضًا عندنا الآية الكريمة عن محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾، (الأحزاب:21)، فاليوم الآخر ضُم إلى الإيمان بالله هنا أيضًا، وتركت العناصر الأخرى أو أخّرت؛ لأنها عناصر تابعة لهذا المعنى.

الإيمان بالله، والإيمان بالآخرة هما الأصلان الأساسيان اللذان ينبغي أن ينتبه إليهما العبد المسلم، ليس معنى ذلك التقليل من شأن الأصول الأخرى، وهي: الإيمان بالملائكة، وبالكتب، وبالرسل، إنما هذه الثلاثة الأصول تأتي تبعًا بعد الإيمان بالله –تبارك وتعالى– وبعد الغاية الجزائية العظمى، وهي الآخرة؛ لهذا الإيمان بالأصول الخمسة واجب وملزم، وهو العقيدة التي تقوم عليها رسالة الله في كل العصور، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه في آيات كثيرة، كما قال –سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾، (النساء:136)، وقال –سبحانه وتعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، (البقرة:285)، فالقرآن الكريم تارة يذكر العناصر الخمسة أو الأصول الخمسة، وتارة يكتفي ببعضها؛ لأنها المناسبة للسياق في مقام ما، والله تعالى أعلم.

إذن: ينبغي أن يتقرر في أنفسنا هذا المعنى: أن الأصول خمسة، والنبي ﷺ عدها ستة، وقد نبهنا على ذلك، وأن هذه مسألة علمية مهمة، الرسول ﷺ كان (في مقام التفصيل)، فذكر القدر أصلًا مستقلًّا، أما القرآن الكريم فهو (في مقام التأصيل)؛ لذلك يدمج الكلام عن القدَر الإلهي في صفات الله تعالى لأنه تبع للإيمان بالله، فالمقامان: مقام التأصيل يجعل الأصول خمسة، ومقام التفصيل يجعل الأصول ستة، ولا تناقض بينهما إطلاقًا، إنما هذا شرح فقط.

النبي ﷺ قصد حين جاءه جبريل على هيئة بشر، وسأله الأسئلة أمام الصحابة؛ ليجمع ما تفرق في العهدين: المكي والمدني من تعاليم القرآن، وسنة النبي ﷺ يجمعها للناس، فجاء على هيئة بشر يسأل عن الدين قال: "ما الإيمان؟، ما الإسلام؟، ما الإحسان؟"، فأجابه النبي ﷺ

---

1 ــ الحيث رواه الجماعة وأحمد بألفاظ متقاربة، مختصرا ومطولا.

بهذا التفصيل؛ لأنه هو المناسب للمقام، أما القرآن الكريم فهو في مقام التأصيل، والجمع، والإتيان بالكليات؛ لذلك أدخل الإيمان بالقدر في صفات الله تعالى لأنه تابع مباشر لهذه الصفات العليا من القدرة، والعلم، ونفاذ المشيئة، والإرادة، وغير ذلك[1].

المحاضرة (04)

الجدل في القرآن الكريم

المحاضرة (04) سنة ثالثة دعوة وثقافة إسلامية ـــ الدكتور مصباح موساوي

لفظ الجدل في القرآن الكريم

الأصل اللغوي لمادة (جدل) استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة، ومراجعة الكلام. و(الجدال) المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله. وجدلت البناء: أحكمته، ودرع مجدولة: المحكمة العمل. ويقال: جدل الحَبُّ في سنبله: قوي. والأجدل: الصقر المحكم البنية. والمجدل: القصر المحكم البناء، ومنه: الجدال، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه. وقيل: الأصل في الجدال: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة.

ولفظ (الجدل) ورد في القرآن في تسعة وعشرين موضعاً، جاء في خمسة وعشرين موضعاً بصيغة الفعل، من ذلك قوله تعالى: يجادلونك في الحق بعدما تبين} (الأنفال:6)، وجاء في أربعة مواضع بصيغة الاسم، من ذلك قوله سبحانه: (ولا جدال في الحج) (البقرة:197). وفي القرآن الكريم سورة تسمى (المجادلة) تضمنت خبر المرأة التي جاءت رسول الله ﷺ وسلم تشتكي زوجها.

ومادة (جدل) وما اشتق منها وردت في القرآن على ثلاثة معان، هي:

الأول: بمعنى الخصومة، وهذا المعنى أكثر ما جاء عليه هذا اللفظ، من ذلك قوله تعالى : {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا) (غافر:4)، أي: ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها، إلا الذين جحدوا توحيده. ونحوه قوله سبحانه: {قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا} (هود:32)، أي: قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا. ومنه أيضاً عز وجل: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم((الحج:3)، أي: يخاصم في الله. أما قوله تعالى : فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط} (هود:74)، عن مجاهد: (يجادلنا)، يخاصمنا.

وتفسير (الجدال) هنا بمعنى السؤال والطلب من الله –كما ذهب إلى ذلك بعضهم– غير مستقيم، واعتبر الطبري هذا التفسير جهلاً بالكلام، قال: لأن الله تعالى أخبرنا في كتابه أنه يجادل في قوم لوط، فقول القائل: "إبراهيم لا يجادل"، موهماً بذلك أن قول من قال في تأويل قوله: { يجادلنا}، يخاصمنا، أن "إبراهيم كان يخاصم ربه، جهل من الكلام، وإنما كان جداله الرسل على وجه المحاجة لهم. ومعنى ذلك: وجاءته البشرى يجادل رسلنا، ولكنه لما عُرِف المراد من الكلام حذف "الرسل".

الثاني: بمعنى المراء، من ذلك قوله عز وجل: (ولا جدال في الحج ((البقرة:197)، يعني: لا مراء في الحج، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (الجدال) أن تماري صاحبك حتى تغضبه، وعن مجاهد: (ولا جدال في الحج) قال: المراء. ونحو هذا قوله تعالى: (ما ضربوه لك إلا جدلا ((الزخرف:58)، أي: مراء، قاله ابن كثير. ومثله أيضاً قوله عز وجل: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) (الكهف:54)، قال الطبري: وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا يُنيب لحق، ولا ينـــزجر لموعظة.

الثالث: بمعنى الحِجَاج والمناظرة، من ذلك قوله سبحانه: (وجادلهم بالتي هي أحسن)، قال ابن كثير: أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحُسْنِ خطاب، وقد يكون المراد بـــ (الجدل) في هذه الآية الدعوة إلى الدين، قال القرطبي: أمره

[1] ـ الأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى (سابقا)

أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف. ومما جاء بلفظ الحِجَاج والمناظرة قوله عز وجل: { ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ((العنكبوت:46).

وقد ذكر بعض أهل العلم فرقاً بين لفظ (الجدال) ولفظ (الحِجَاج)، فقال: "المطلوب بـــ (الحِجَاج) هو ظهور الحُجة. والمطلوب بـــ (الجدال) الرجوع عن المذهب، وذلك أن دأب الأنبياء عليهم السلام كان رد ع القوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين الله ببذل القوة والاجتهاد في إيراد الأدلة والحجج".

نخلص مما تقدم أن لفظ (الجدال) أكثر ما جاء في القرآن الكريم بمعنى (الخصومة)، وجاء أيضاً بمعنى (المراء)، وبمعنى (المناظرة) و(الحِجَاج)، وهو بحسب هذا المعنى الأخير محمود ومرغوب فيه، وهو بحسب المعنيين الأول والثاني مذموم ومرغوب عنه.

أولا: الجدال في القرآن الكريم (نوح عليه السلام أنموذجا)

حال الناس قبل دعوة نوح عليه السلام (بيئة الدعوة):

أرسل الله – عز وجل – نوحًا عليه السلام إلى قومٍ يعبدون الأصنام المتمثِّلة في تماثيل أو أوثان صنعها القوم لأناس صالحين، ولكن الشيطان خطا بهم خطواته، وزيَّن لهم الأمر شيئًا فشيئًا، وسلك معهم سبيلَ التدرج حتى عبَدوا التماثيل التي صنعوها لهؤلاء الرجال الصالحين، وتشبثوا بعد ذلك وأصروا على هذا الصنيع، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23].

ويشرحُ لنا ابن كثير – رحمه الله تعالى – تلك الخطوات المُوصلة إلى عبادة الأصنام، وأن هذه التماثيل كانت لقومٍ صالحين ورجال مُحبَّبين إلى الناس، فلما ماتوا عكَفوا حول قبورهم يزورونهم ويتذكَّرون كلامهم الطيب، وبمرور الزمن جاء جيل بعد الجيل الأول زيَّن لهم الشيطان فكرة أن يصنعوا لهم صورًا، ثم تطوَّرت الفكرة إلى أن جعلوا تلك الصور تماثيل ثابتة أبقى من الصور، ثم بعد مجيء أجيال جديدةٍ سلكوا سبيل التطوُّر فعبدوا الأصنام من دون الله[1].

دعوة نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده

إنَّ المتأمل لقصة نوح عليه السلام ودعوته لقومه، يرى عظم هذا النبي في قيامه لأداء مهمة التبليغ لقومه ودعوته إياهم لعبادة الله تعالى وحده، حيث مكث عليه السلام فيهم ألف سنة إلا 50 عاما يدعوهم ليلا ونهارا، سرا وعلانية، وكانت دعوة نوح عليه السلام التي دعا قومه إليها هي دعوة التوحيد الخالص، وتحقيق عبودية الله تعالى، وترك الشرك الذي هم فيه من عبادة الأصنام.

قال تعالى: "ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين * أن لا تبعدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم" (هود: 25-26).

وفي قوله تعالى "ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه":

"ولقد": الواو للاستئناف أرجح، وللعطف موضوعا على موضوع تجوز، واللام للقسم أو الموطئة له والدالة عليه، وقد: للتحقيق.

"أرسلنا نوحا إلى قومه": حملنا رسالتنا وأوحينا لعبدنا نوح إلى قومه، وهم الذي عاش بينهم ويعرفونه ويعرفهم، وهم في فجر الحياة البشرية مع بدايات تشكل الجماعات والمجتمعات والأقوام.

"إني لكم نذير مبين": أي فحوى رسالته لهم قوله ما سجلته الآية: إني يا قوم لكم أنتم لا لغيركم، وأنتم من تعرفونني، نذير: منذر محذر من سوء عواقب ما أنتم فيه، مبين: واضح الإنذار لا لبس فيما أقول، ولا تعمية ولا تعقيد، بل كلام بسيط مفهوم، والتحذير واضح أن الكفر والشرك عواقبه في الدنيا والآخرة وخيمة وبيلة، وأن التظالم لا يؤدي إلا إلى سوء النتائج.

---

1 ــ قصص الأنبياء؛ لابن كثير ص 45، مكتبة الصفا، طبعة أولى 2001م / 1422هـ.

وفي قوله: "إني لكم نذير مبين"، كلمة "إني لكم" نفقه منها درسا وحكما رائعة؛ أن الداعية -الرسول وغيره- لا يعيش لنفسه ولا لشهواته ولا لأقاربه فحسب؛ وإنما يعيش للناس لإسعادهم، ويفني عمره في إنقاذهم من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وحقا إن الذي يعيش لنفسه وشهواته ولدنياه يعيش صغيرا ويموت صغيرا، وإن الذي يعيش للناس يعيش كبيرا ويموت كبيرا، ويبقى ذكره الحسن العاطر على كل لسان، وهكذا عاش نوح عليه السلام، وسائر الأنبياء والمرسلين من بعده.

ومن خلال الآيات الكريمة المذكورة يظهر الأدب الرفيع في الطريقة التي سلكها نوح -عليه السلام- في طرحه للموضوع من خلال:

التمهيد: حيث مهّد نوح عليه السلام للموضوع الذي سيطرحه بطريقة عنيفة قوية، ليحدث في نفوسهم جلبة وقلقا يُهيئها للاهتمام والترقب الشديد لما سيقوله لهم، وقد صاغ نوح هذا التمهيد بقوله "إني لكم نذير مبين" -وكثيرا ما تكون البداية قوية- أسلوبا بالغ الأهمية في لفت الأنظار للموضوع المطروح.

صلب الموضوع: من أدب الكلام أن تعرض المواضيع ذات الأهمية الكبرى بكلمات بسيطة واضحة لا لبس فيها ولا غموض؛ حتى يفهمها المخاطبون على المستويات المختلفة، وهكذا فقد اختار نوح لموضوعه ألفاظا واضحة المعنى والمراد؛ كي لا يصرف الذهن عن المعنى الأصلي، ولا يترك أي مجال للتأويل، فلخّص موضوع رسالته بقوله "ألا تعبدوا إلا الله"، وهذه الكلمة هي قاعدة الدين ومحوره وعموده وملخصه، وهي التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والإنسان عابد بالفطرة لا يملك إلا أن يعبد، فهو إما أن يعبد الإله الحق وإما أن يعبد الشيطان أو الهوى أو الأوثان، والمال والشهوات... إلى آخر المعبودات، والأنبياء مهمتهم أن يردوا الناس إلى عبادة رب الناس وحده، وما أجمل كلمة الصحابي ربعي بن عامر لرستم قائد جيوش الفرس، إذ قال له "الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد...".

ولاحظ أنه لم يقل أن تعبدوا الله، ولكن أتى بها بصيغة الحصر والقصر "ألا تعبدوا إلا الله"، فكثير من الناس يؤمنون بالله ويعبدونه، ولكنهم يشركون في كل ذلك، كما قال تعالى في أكثر من موطن في قرآنه، ومن ذلك ما في السورة التالية لهذه السورة، وهي سورة يوسف إذا قال الله سبحانه: ﴿وما يُؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون﴾ (يوسف: 106).

وإن العبادة مفهوم شامل -كما لا يخفى- ينظم شؤون الحياة كلها، فكل ميادين الحياة ميادين عبادة، وكل نشاط في هذه الحياة -إن ابتغي به وجه الله- هو عبادة، والعادات بالنيات تغدو عبادات، والعبادات بلا نيات هي عادات.

وصفه بالعبودية

إن من مضمون دعوة نوح عليه السلام دعوة الناس لعبادة الله، وإفراده وحده بذلك، وقد أثنى الله على دعوته وجهده في كتابه العزيز، فوصف الله عز وجل نوح عليه السلام بالعبودية، إذ استطاع أن يحققها في أعلى مستوياتها.

حيث وصفه الله تعالى بأنه كان عبدا شكورا، قال تعالى: ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنّه كان عبدا شكورا﴾ (الإسراء: 3)، وإن ذِكر صفة الشكر بعد صفة العبودية من باب ذكر الخاص بعد العام، فالشكر من العبادة، وقد اختص نوح عليه السلام بصفة الشكر، فكان كثير الشكر في مجامع حالاته كلها، وجعله الله تعالى علة لما قبله من حمله في السفينة ونجاته من معه، فالشكر أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات، وقد القرآن ذرية نوح على شكر الله تعالى، فكانت نجاة نوح ومن معه ببركة شكره، وحث ذريته على الاقتداء بنوح، وزجرهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفر.

وجاءت هذه الصفة – العبودية- لنوح عليه السلام في معرض الإشفاق عليه، لعناد قومه، وفضهم دعوته، فقال تعالى: ﴿كذّبت قبلهم قوْم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازْدُجِر﴾ (القمر: 9)، وإضافته لرب العزة في قوله "عبدنا" هو تشريف لمنزلة نوح عليه السلام، فجمع بذلك بين تكريمين:

الأول: ذكره عليه السلام بعنوان العبودية

الثاني: إضافته إلى نون العظمة، وهذا تعظيم له عليه السلام ورفع لمحله وقدره.

وجاءت هذه الصفة والإضافة لنوح –عليه السلام– على سبيل العموم لا الخصوص كما في الآية السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إنّا كذلك نَجزي المحسنين، إنّه من عبادنا المؤمنين﴾ (الصافات: 80– 81)، فوصفه عليه السلام بصفة الإحسان، وهي أعلى مراتب العبودية، ومعناها أن يعبد المرء ربه سبحانه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، كما بين ذلك المعنى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ونوح عليه السلام من المحسنين بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وهو من المصدقين الموحدين.

وقد وُصف نوح عليه السلام بالعبودية مقرونا مع لوط عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ضرب اللّه مثلا للذين كفروا امْرأتَ نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾ (التحريم: 10)، فمع وصف الله تعالى لنوح عليه السلام بصفة العبودية التي استحقها، وصفه سبحانه بالصلاح أيضا.

وقد شهدت السنة المطهرة بصفة العبودية لنوح عليه السلام، ففي حديث الشفاعة أن الناس يذهبون إلى نوح عليه السلام فيقولون "يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا، أما ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي ائتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فيأتوني فأسجد تحت العرش، فيقال يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعطه، قال محمد بن عبيد لا أحفظ سائره".

قيامه بالعبودية: قام نوح –عليه السلام– بالدعوة إلى عبودية الله وتحقيقها في نفسه حق القيام، وأخلص له في أعماله كلها، فلم يصرف شيئا من العبادة لغير الله عز وجل، بل وجهها لخالقه سبحانه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

الأقوال: كان عليه السلام كثير الشكر في جميع أحواله كلها حتى اختُصّ بهذه الصفة ﴿إنّه كان عبدا شكورا﴾ (الإسراء: 3).

وكان عليه السلام لا يدعو إلا الله عز وجل ولا يسأل سواه سبحانه، والآيات في هذا المعنى كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿فدعا ربّه أنّي مغلوب فانتصر﴾ (القمر: 10)، وقوله تعالى: ﴿قال ربِّ إنّ قومي كَذّبون * فافتحْ بيني وبينهم فتحا ونجّني ومن معي من المؤمنين﴾ (الشعراء: 117– 118)، فكلها آيات شاهدة على أن نوحا عليه السلام كان يدعو الله عز وجل ولا يسأل سواه سبحانه.

وكان عليه السلام يستعيذ بالله تعالى ويحرص على طلب المغفرة والرحمة منه سبحانه، فقال تعالى مخبرا عنه عليه السلام: ﴿قال ربِّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلّا تغفرْ لي وترحمْني أكن من الخاسرين﴾ (هود: 47)، فهذا اعتراف من عبد ذلّ وخضع لله تعالى يطلب مغفرة الله ورحمته به، مع علو منزلته من درجة النبوة، فكلما ازداد العبد خضوعا لله تعالى ارتفعت منزلته ودرجته، وكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وتحررا عمّا سواه.

وسمى الله تعالى واستفتح به عند ركوبه عليه السلام ومن معه السفينة، فقال تعالى عنه: ﴿وقال اركبوا فيها بسْم اللّه مَجراها ومُرْساها إنّ ربّي لغفور رحيم﴾ (هود: 41).

الأعمال القلبية: كان نوح عليه السلام متوكلا على الله تعالى حق توكله، فيقول الله تعالى عنه: ﴿فعلى اللّه توكّلتُ فَأجمعوا أمركم وشركاءكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غُمّة ثمّ اقْضُوا إليّ ولا تُنظِرونِ﴾ (يونس: 71).

ويقول مخبرا عن إيمان نوح عليه السلام بقضاء الله وقدره: ﴿ولا يَنفعكم نُصحي إنْ أردتُ أن أنصح لكم إن كان اللّه يريد أن يُغْويكم هو ربكم وإليه تُرجعون﴾ (هود: 34). والإيمان بالقدر من أعظم أركان الإيمان بالله تعالى.

وكان عليه السلام مؤمنا بوعد الله تعالى الذي يقول حاكيا قوله: ﴿وإنّ وعْدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ (هود: 45).

وكان مؤمنا عليه السلام برزق الله تعالى له، فيقول الله تعالى على لسان نوح: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾ (الشعراء: 109).

وكان مؤمنا بالبعث والحساب، قال تعالى عنه عليه السلام: ﴿وما أنا بِطاردِ الّذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم﴾ (هود: 29). وقال ﴿هو ربكم وإليه تُرجعون﴾ (هود: 34)، وقال: ﴿إنْ حسابُهم إلّا على ربّي لو تشعرون﴾ (الشعراء: 113).

وكان مؤمنا بأسماء الله وصفاته: فأسماء الله تعالى قد آمن بها نوح عليه السلام، ومنها: الغفور، الرحيم، قال تعالى عنه: ﴿إنه كان غفارا﴾ (نوح: 10). وقال: ﴿إن ربّي لغفور رحيم ﴾ (هود: 41). وصفات الله تعالى آمن بها نوح عليه السلام، منها:

صفة الإرادة، لقوله تعالى حكاية عنه: ﴿ولا ينفعكم نصحي إنْ أردتُ أنْ أنصح لكم إنْ كان اللّه يريد أنْ يغويكم﴾ (هود: 34).

وصفة العلم، لقوله تعالى: ﴿اللّه أعلم بما في أنفسهم﴾ (هود: 31).

وصفة الخلق، لقوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون للّهِ وَقارا * وقد خلقكم أطوارا * ألم تروا كيف خلق اللّه سبع سماوات طباقا * وجعل القمر فيهنّ نورا وجعل الشمس سراجا﴾ (نوح: 13: 16).

ومن الأعمال الباطنة القلبية الخاصة بعمل القلب وهي أوثق عرى الإيمان هي الحب في الله والبغض فيه، فهذا نوح عليه السلام يتبرأ من أقرب الناس إليه، وهما زوجته وابنه، فإنه لما علم أنهما كانا من الظالمين –كما أخبره تعالى– بذلك تبرأ منهما، فكانت زوجته تفشي سره لقومه فاستحقت العذاب معهم، وقد قال تعالى: ﴿ضرب اللّه مثلا للذين كفروا امرأت نوح وَامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحَين فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما من اللّه شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ (التحريم: 10). والآخر هو ابنه لم يسمع كلام أبيه الذي دعاه ألا يكون مع الكافرين، قال تعالى حكاية عن نوح: ﴿يا بُنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ (هود: 42)، ورغم تحذير أبيه له من الطوفان والغرق قال: ﴿سآوي إلى جبل يَعصمني من الماء﴾ (هود: 43).

الأعمال الظاهرة: إنَّ من أوضح الأعمال الظاهرة التي قام بها نوح عليه السلام امتثالا لأمر ربه هي بناء السفينة، والتي أوحى الله تعالى إليه ببنائها، قال تعالى: ﴿وأُوحي إلى نوح أنّه لن يُؤمن مِن قومك إلّا مَن قد آمن فلا تَبتَئِس بما كانوا يفعلون * واصنع الفُلك بأعيننا ووحينا ولا تُخاطبني في الذين ظَلموا إنّهم مُغرَقون﴾ (هود: 36– 37).

وقام عليه السلام ببناء السفينة، ومن معه ممن آمن بالله، وكان قومه يسخرون منهم ويستهزئون، قال تعالى: ﴿ويصنع الفُلك وكلما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخِروا منه قال إن تسخروا منا فإنّا نَسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون مَن يأتيه عذاب يُخزيه ويَحِلّ عليه عذاب مُقيم﴾ (هود: 38– 39).

وهكذا حقق نوح –عليه السلام– عبودية القلب، وعبودية الجوارح، وعبودية اللسان، وعلّمها لأتباعه ومن آمن به، ودعا إليها على بصيرة وعلم من عند الله عز وجل[1].

مراحل دعوة نوح عليه السلام:

1 – المرحلة الأولى: وهي الدعوة إلى التوحيد

سبق أن ذكرتُ أن أرض الدعوة كانت وثنيةً، فالقوم يعبدون عدَّة آلهة، وقد وجدوا على ذلك آباءهم وأجدادهم، حتى كان الآباء يُوصُون أبناءهم بالتمسُّك بعبادة تلك الأصنام وعدم التخلِّي عنها، وعلِم ذلك نوحٌ عليه السلام؛ حيث قال في دعائه: ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 27].

ذكر الرازي: "وكان الرجل منهم ينطلقُ بابنِه إليه، ويقول: احذر هذا؛ فإنه كذَّاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك"[2].

---

1 ــ مقال للدكتور علي الصلابي، 2021/4/15م، موقع مدونة الجزيرة نيت.

2 ــ مفاتيح الغيب ص 752 جزء 10.

ونتجه إلى سورة الأعراف؛ لنتعرَّف على بعض مراحل الدعوة، وأولها الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59].

يقول الرازي: "في الآية فوائد:

1- أنه عليه السلام أمرهم بعبادة الله تعالى.

2- أنه حكم أن لا إله إلا الله، والمقصود من الكلام الأول إثبات التكليف، والمقصود من الكلام الثاني الإقرار بالتوحيد.

3- أنه حذَّرهم عذاب يوم عظيم، وهو إما عذاب يوم القيامة، وإما عذاب يوم الطوفان"[1].

2- **المرحلة الثانية: رد الملأ ومواجهتهم**: لَمَّا دعاهم إلى عبادة الله وحده، وخوَّفهم عذابه، اتَّهموه بالضلال في بداية الأمر ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: 60]، واتَّهموه بالجنون كما ورد في سورة المؤمنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: 25]، وفي سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾القمر: 9.

واتَّهموه بالكذب كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: 27].

وسخِروا منه كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود: 38].

هذا بعضُ ما فعله وقاله الملأ، ولكن لماذا الملأ هم أعداء الرسل والرسالات؟!

والجواب قاله المفسرون: "الملأ: الكبراء والسادة الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء... وهم الذين يملؤون صدورَ المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتِهم، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم، وتتوجَّه العيون في المحافل إليهم، وهذه الصفات لا تحصلُ إلا في الرؤساء، وذلك يدلُّ على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر"[2].

لَمَّا اتهموه بالضلال قال: ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ [الأعراف: 61]، وما أعظم هذا الردَّ، وما أبلغه!

يقول الرازي: "فكان هذا أبلغَ في عموم السلب، ثم إنه لَمَّا نفى عن نفسه العيب الذي وصفوه به، ووصف نفسَه بأشرف الصفات وأجلِّها، وهو كونُه رسولاً إلى الخلق من رب العالمين، فذكر المقصود من الرسالة، وهو التبليغ والنصيحة ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: 62]، والفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصيحة، هو أن تبليغ الرسالة معناه أن يُعرِّفهم أنواع تكاليف الله وأقسام أوامره ونواهيه، وأما النصيحة، فهي أن يُرغِّبه في الطاعة، ويحذره من المعصية، ويسعى في تقرير ذلك بالترغيب والترهيب بأبلغ الوجوه"[3].

وهؤلاء الملأ مِن عِليَة القوم وصَفْوة المجتمع، أصحاب المصالح، أعداء الإصلاح - اتَّهموا نوحًا عليه السلام بأنه ما اتَّبعه إلا الفقراء والعوامُّ وأصحاب الحِرَف، وطلبوا منه أن يطردَهم؛ ليكون المجلس مجلسَ الملأ، فهم الذين يملؤون القلوب هيبة، والمجالسَ أبَّهة، ولا يليق أن يجالسهم الأراذل، يقول الله - عز وجل -: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: 27].

يقول الرازي: "طعنوا في نبوَّته بثلاثة أنواع من الشبهات:

الأولى: أنه بشر.

الثانية: كونه ما اتَّبعه إلا أراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع، قالوا: ولو كنت صادقًا، لاتَّبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم.

ونظيره قولُه تعالى: ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: 111].

---

1 ــ مفاتيح الغيب ص 161 جزء 7.

2 ــ مفاتيح الغيب ص 163 جزء 7.

3 ــ مفاتيح الغيب ص 164 جزء 7.

الشبهة الثالثة: لا نرى لكم علينا من فضل؛ لا في العقل، ولا في رعاية المصالح العاجلة، ولا في قوة الجدل...[1].

أما الرد على هذه الاتهامات وتلك الشبهات[2]، فقد سجَّله القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: 28 -30].

ففي الآيات رد على الشبهات الثلاث السابقة:

فأما الشبهة الأولى: وهي أنه بشر، فقد رد عليها بقوله: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾، وهذه الشبهة هي المعجزة الدالة على النبوة، وأما الرحمة، فهي النبوة ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾، ولكنهم في عمًى عن الحق، فالتبس عليهم الحق ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ بسبب عمى البصيرة.

وقوله تعالى: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾، قال الرازي: "فيه ثلاثة مضمرات: ضمير المتكلم، وضمير الغائب، وضمير المخاطب"[3].

وأما الشبهة الثانية، وهي قولهم لا يتَّبعك إلا أراذل الناس، فالرد عليها بقوله: ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾، وأنه لن يطرد الفقراء إرضاءً للأغنياء ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [هود: 29].

وأما الشبهة الثالثة: ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ... ﴾ [هود: 27]، فالردُّ عليها: "أن الله تعالى أعطاه أنواعًا كثيرة تُوجب فضله عليهم، ولذلك لم يَسْعَ في طلب الدنيا، وإنما سعى في طلب الدِّين، والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل، فلعل المراد تقريرُ الفضيلة من هذا الوجه"[4].

3- أساليب الدعوة المتنوعة وتدرجها مع طول المكث وكثرة الجدال:

لَمَّا دعا نوحٌ قومَه إلى عبادة الله وحده، وخوَّفهم عذابه وانتقامه، اتَّهموه بالضلال، فنفَى عن نفسه الضلال، وأخبرهم أنه مُبلِّغ عن الله تعالى، وأنه ناصح لهم، ثم نتأمَّل الترتيب في قوله تعالى وهو يخاطبهم: ﴿ وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: 63].

يقول الرازي – رحمه الله –:"بيَّن تعالى ما لأجله يبعثُ الرسول، فقال تعالى: ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾، وما لأجلِه ينذر، فقال ﴿ وَلِتَتَّقُوا ﴾، وما لأجله يتَّقون، فقال تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة"[5].

4- أساليب دعوة نوح عليه السلام:

أ – الدعوة بالليل والنهار، والسر والجهار، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ [نوح: 5]، ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: 8، 9].

---

1 ــ مفاتيح الغيب ص 507 جزء 8.

2 ــ مفاتيح الغيب ص 510 جزء 8.

3 ــ مفاتيح الغيب ص 510 جزء 8.

4 ــ مفاتيح الغيب للرازي ص 512 جزء 8.

5 ــ مفاتيح الغيب ص 167 جزء 7.

ولعله فهم ما لهذا الأسلوب من أثرٍ على النفوس البشرية؛ إذ من الناس مَن يكون وعيُه وإدراكُه في النهار أكثرَ من الليل، ومنهم مَن يكون على العكس، فالصنف الأول دعاه بالنهار، والآخر دعاه بالليل، كما أنه لاحظ اختلافَ طبائع الناس، فوجد أن منهم مَن إذا وُجِّهت له الدعوة جهرًا أمام الناس، تأخذُه العزة والأَنَفة، ولا يمتثلُ للأمر المدعُوِّ إليه؛ تكبرًا أو تعاليًا، وصلفًا وغرورًا، وخوفًا من معايرة أهله وعشيرته، فهذا إذا دُعِي سرًّا، فإنه قد يمتثل إليه، وقد يخفيه سرًّا فترة من الزمن، وكان عليه السلام يُوجِّه الدعوة جهرًا لمن يلمس فيه الشجاعة والاحترام وعدم المبالاة والخوف من أحد، طالما اقتنع بصحة ما أقدم عليه[1].

ب- إقامة الأدلة على قدرة الله تعالى في الخلق، والتنبيه على كثرة نعمه وآلائه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 14] وقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح: 17 - 20].

جـ- الترغيب في الطاعة وبيان ثوابها العاجل والآجل في الدنيا والآخرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: 10 - 12].

د- أسلوب التأنيب والتوبيخ بعد طول الحوار والجدل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: 13].

ثم الدعاء عليهم، ولكن قبل أن يدعوَ عليهم اشتكى إلى ربه تعالى في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: 5 - 7]، وقولِه: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح: 21، 22].

ثم جاء الدعاء؛ دعاء المغلوب المظلوم، دعاء المتوكل على الله عز وجل، دعا عليه السلام بعدما أخبَره الله - عز وجل - أنه لن يُؤمِن من قومه إلا مَن قد آمن، ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: 36]، إذًا فلا فائدة، وليس إلا الدعاء عليهم:

- ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 26، 27]، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر: 10].

فجاء النصر والانتقام؛ النصر والنجاة للمؤمنين الصابرين، والهلاك والانتقام من المجرمين المكذبين، وتلك سنة الله تعالى، ويصف لنا القرآنُ الكريم كيف كان الانتقام:

- ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: 11، 12].
- ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: 44].
- ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [نوح: 25].

وتحقَّق قدر الله ووعده، فقد سلط عليهم ماء السماء والأرض فأغرقهم واستأصلهم، وأنجى الله تعالى المؤمنين، وتَبْقَى سنةُ الله تعالى فيمن بعدهم، ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: 48].

وهكذا تظهر لنا سُنَّة التدريج في دعوة نوح عليه السلام فيما يلي:

1- فهم بيئة الدعوة؛ لتحديد نقطة البَدْء.

2- الدعوة إلى نَبْذ الأصنام، وتوحيد الله عز وجل.

3- استعمال كافة الأساليب الممكنة والمتاحة لدى الداعي مع الصبر والتحمل.

---

1 ــ مناهج أولي العزم من الرسل؛ أ.د. عبدالوهاب عبدالعاطي عبدالله، ص32، طبعة أولى 1412هـ دار الطباعة المحمدية.

4- مراعاة أحوال المخاطَبين ودعوتهم بالحكمة، وفي هذا يقول فضيلة الدكتور عبدالوهاب عبدالعاطي عبدالله:

"على الداعي أن يترسَّم خطى نوح عليه السلام في أساليبه المختلفة، كل أسلوب في مقامِه الذي يليق به، فلا يستعمل الداعي الحلمَ في مقام الشجاعة، ولا الشجاعة في مقام الحلم، ويتدرج في إقامة الأدلة"[1].

5- البَدْء بأسلوب اللين والرفق مع المدعوِّين، والترغيب أولاً ثم الترهيب والتوبيخ، ثم التعنيف والتخويف، ثم يدعو الله – عز وجل – أن يفتح بينه وبين قومه.

ولكن وبعد ألف سنة إلا خمسين عامًا من الدعوة والجهاد والصبر والتحمل، ماذا كانت حصيلة الدعوة، وماذا كان الحصاد؟

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40].

أخبره الله – عز وجل – أن مهمته أوشكَت على الانتهاء، وأنه لن يستجيب له أحدٌ بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: 40].

وطالما أن الأمر كذلك، فلا بأس من الدعاء عليهم، فدعا ربَّه، فاستجاب الله ونجَّاه ومَن معه وأغرق الآخرين، وشتَّان ما بين بداية الدعوة ونهايتِها، فلقد بدأت باللين والرفق والترغيب، وانتهت بأقسى ما يكون، وهو الدعاء عليهم والانتقام منهم وإهلاكهم بالغرق[2].

دروس وعبر من حياة نوح عليه السلام الدعوية طلية 950 سنة:

أتدرون أكثر الأشياء قيمة عند الله؟

أنه السعي.. لا المال ولا التأثير ولا التفوق، كل هذه ستأتي، فماذا يريد الله أن يرى منك؟

يريد منك السعي، هناك أنبياء يعرضون أما الله يوم القيامة، وكم أتباعهم؟ النتيجة صفر، لكن رغم ذلك يعطيهم الله أعلى درجات في الجنة، لماذا؟.

لأن الله يقدر سعيهم وجهده، ومثابرتهم، لقد كانوا أقواياء فتحملوا.

لو كان لدينا تقرير زمني لنوح عليه السلام لكل عام لنرى رسما بيانيا لعدد الداخلين في الإسلام، كتقرير سنوي لفترة مكوثه في قومه، فكم عدد الذين يدخلون الإسلام في كل عام خلال 950 سنة؟

الرسم البياني قد يرتفع ويعتدل وربما ينخفض، لا يوجد هناك تأثير.. لا يوجد تقدم على الأرض، لكن أتعلمون ما الذين نحن بصدده حول دعوة نوح عليه السلام؟.

إنه السعي الدائم الحثيث، يجب أن نستوعب هذا جيدا، يجب أن تكونوا أناسا ذووا سعي، فلا نملك شيئا بين يدي الله إذا لم نسعى، عندما نسعى سيكون لحياتنا معنى، وعندما يكون لحياتنا معنى، فذاك يجعلنا سعداء، أما حين لا يكون لك شيء تسعى وراءه فلن يكون للحياة معنى، ولهذا لن تكون سعيدا أبدا، فلا يهم ما مقدار الأكل الذي نأكل، أو السيارة التي نركب، أو المسكن الذين نسكن... قال تعالى: (وأن سعيه سوف يرى)، أتعرفون أكثر الأشياء قيمة عند الله؟ الله ينظر إلى الصحف بناء على الجهد، فالله هو الذي يرى مساعينا، فكل ما نراه هو الأثر، فنحن نحكم على النتائج، والله يحكم على الجهود، فلا أحد يقدر ويثمن جهودك إلا الله تعالى.

فنوح عليه السلام لبث في قومه 950 سنة، فالنتائج قليلة، والمجهود كبير، والسعي لا يقدر بثمن (وأن سعيه سوف يرى)، بل عند الله استحق أن يجزيه ذلك السعي الكبير (ثم يجزاه الجزاء الأوفى).

ثانيا: الجدل في القرآن الكريم (إبراهيم عليه السلام أنموذجا)

1 ــ دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه من عبدة الكواكب بدلائل الكون:

1 ــ مناهج أولي العزم من الرسل ص70.

2 ــ من كتاب: "خصيصة التدرج في الدعوة إلى الله (فقه التدرج)".

قال الله تعالى: ''وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ – فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ – فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ –فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ – إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ'' الأنعام:75-79. لقد سلك إبراهيم عليه السلام في دعوته لعبدة الكواكب مسلكاً غير مسلكهِ في دعوته لأبيه وعبدة الأصنام، فهو مع أبيه يتبع أسلوب الرفق واللين والهدوء في الحوار، وهو مع عبدة الأصنام يتبع طريقه تغير المنكر باليد، ولكنه مع عبدة الكواكب يتبع طريقه أخرى، وهي الموافقة في العبارة من أجل إلزام الخصمِ وإفحامه. ولقد أرى الله إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض ليكون ممن يقرُ بوحدانية الله ويُبصره الله بحقيقة ما هداه الله له، وبيان ما عليه قومه من الضلال لعبادتهم الأصنام واتخاذها من دون الله أرباباً.

يقول الطبري في معنى ذلك: وكذلك نُري إبراهيم ملكوتَ السموات والأرض، أي أنه أراه ملك السموات والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب، وغير ذلك من عظيم سلطانه منها، وجلّى له بواطن الأمور وظواهرها، فبيّن الله له وجه الدلالة وذلك بدعوته للنظر في خلق السماوات والأرض ليصل إلى يقين وحدانية الخالق في ملكه وخلقه وأنه لا إله غيره ولا ربّ سواه.

وقد ذهب بعض المفسرين مثل الطبري من القدماء وسيد قطب من المحدثين؛ إلى أن هذه الآيات كانت قبل نبوة إبراهيم عليه السلام، وأنه قال: ''هذا ربي'' تدرجاً منه في طلب الحقيقة الإلهية، وأنه بدأ التأمل في الكون ليعرف سرّ الوجود من الوجود، وذهب كثيرٌ منهم إلى قوله: هذا ربي كان بعد نبوته، وأنه قال ذلك استدراجاً للحجة، ولبيان عيب آلهتهم، فقد كان مع قومه في مقام مناظرٍ لا ناظر، والصحيح أنه قال ذلك بعد نبوته، لدلالة الآيات قبل وبعد دعوته لقومه أنه ما قال ذلك إلا لمتابعتهم على نفس طريقتهم ومن ثم إلزامهم بما هو أمامهم فدليل لقومه أنه ما قال ذلك إلّا لمتابعتهم على نفس طريقتهم ومن ثم إلزامهم بما هو أمامهم فدليل ما قبل دعوته لهم قول الله على لسانه عليهم السلام، فقال تعالى: ''وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ'' الأنعام:74.

إنّ هذا يعني أنه ما قال إلّا وهو موقن أنه على حق، وأراد استدراجهم ليقروا بالوحدانية، وأن الله بين في كتابه أنه رزقه الحكمة من قبل دعوته، فقال تعالى: ''وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ''الأنبياء:51.

وكذلك استحالة الكفر على الأنبياء قبل وبعد النبوة.

وأكد على ذلك ابن العربي بقوله: والذي أوتيه إبراهيم عليه السلام من العلم بالحجة، وهي التي تذكر للخصم على طريق المقابلة كان فيها الدنيا بظهور دلالة التوحيد وبيان عصمة إبراهيم عن الجهل بالله تعالى، والشك فيه، والإخبار أن ما جرى بينه وبين قومه إنما كان احتجاجاً و لم يكن اعتقاداً.

الهدف من دعوة إبراهيم عليه السلام لعبدة الكواكب: كان يهدف إبراهيم عليه السلام من دعوته إلى استدراج عبدة الكواكب من قومه إلى توحيد الله تعالى، وإثبات أنه وحده هو المعبود بحق. وإن المتفقهُ في دعوة إبراهيم عليه السلام، فإنه يرى أن قصد إبراهيم عليه السلام إبطال ما ذهب إليه عبدة الكواكب، وبيان فساد عبادتها وعدم صلاحيتها؛ لأن تكون أرباباً من دون الله، فساق الإلزام على أصحاب الهياكل مساق الموافقة في المبدأ والمخالفة في النهاية؛ ليكون الإلزام أبلغ والإفحام أقوى، وإن إبراهيم عليه السلام أراد أن يُلفت انتباههم إلى ما هم فيه من خطأ في عبادتهم ودينهم، فأرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ومن خلال إرشاده لهم بالنظر الصحيح أوصلهم إلى أنّ هذه الكواكب لا يصح منهم أن تكون مقام الإله، وذلك لقيام دليل الحدوث فيها، وهذا يؤكد أن من ورائها محدثاً أحدثها وصنعها ودبر طلوعها وأقوالها وسائر ما عليه.

ومنهج إبراهيم عليه السلام في دعوةٌ للمؤمنين، وهي أن ينتهجوا نهجه عليه السلام، كون أمه يُقتفى به في طريق الاعتبار والتأمل في عظمة هذا الكون ليصلوا إلى عقيدة راسخة تُنبئهم أن لهذا الكون خالقاً متفرداً بالخلقِ والإبداع، وأن ما في الكون هو له مسخر وله طائع، ومن ثم

فإن ها يؤكد وحدانيتهُ في العبادة، وأن اتخاد أو اعتقاد أي رب هو آخر يأتي من قبيل الشرك الذي يذم صاحبه عليه، وهو باب تعطيل العقل والحواس عن التأمل والتمعن في ملكوت هذا الكون والوصول إلى الحقيقة المُطلقة[1].

2 ــ حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر:

نص الحوار وتحليله:

يقول الله – عز وجل –: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبراهيم لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: 41 - 48].

من خلال هذا الحوار القرآني، نلمسُ أن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – نهج حوارًا بنَّاءً مع أبيه، وناداه بصيغة "يا أبتِ" أربع مرات، وتاء التأنيث في أبتِ يؤتى بها للتعظيم والتبجيل في النداء.

هذا، وقد استهلَّ إبراهيم – عليه السلام – في كل مرة نداءه بـــ: "يا أبتِ"؛ نصيحة إيمانية قدَّمها لأبيه.

بدأ هذه النصائح بتقديم البرهان العقلي لأبيه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾؛ أي: هذه الأوثان جَمَاد لا تسمعُ دعاء عابدها، ولا تُبصِر مكانه، ولا تجلب له نفعًا، ولا تدفع عنه ضرًّا؛ فلِمَ يا أبتِ تعبدُها، والعقل يرفضها؟![2].

ثم ثنَّى – عليه السلام – بهذه النصيحة: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 43].

ثم ثلَّث – عليه السلام – بنهي الأبِ عن عبادة الشيطان؛ ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾.

وأخيرًا: ربع إبراهيم – عليه السلام – بخاتمة نصائحه لأبيه آزر، وهي "تخويفه سوء العاقبة؛ ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[9].

هكذا كان خطاب الابن لأبيه؛ حيث تدرَّج معه في الدعوة، فبدأ معه بالأسهل فالأسهل، أخبره بعلمه، وأن ذلك مُوجب لاتباعه إيَّاه، وأنه إن أطاعه اهتدى إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضارِّ، ثم حذَّره عقابَ الله ونِقمته، إن أقام على حاله، وأنه إن فعل فسيكون للشيطان وليًّا.

كان والد إبراهيم –عليه السلام– يغضب ويردُّ بالتهديد والوعيد، وينادي إبراهيم باسمه ولا يقول له: (يا بني)؛ الكلمة التي تحمل معنى العطف والحنان، كما كان إبراهيم –عليه السلام– يخاطب أباه بـــ (يا أبتِ)؛ وهذه هي عادة المعاندين للحقّ فلا يردُّون بحُجّة، ولا يملكون سوى التهديد والوعيد.

لكن مع هذا كله، فإن هذه الدعوة وهذا الأسلوب الدعوي لم ينفع ذلك الشقيَّ؛ بل أجاب بجواب جاهل،

فقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾؛ يعني: إن كنتَ لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانتهِ عن سبِّها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنتهِ عن ذلك، اقتصصتُ منك، وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾، ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، قال الحسن البصري: "زمانا طويلا"[3].

وعندها قال له إبراهيم: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾؛ أي: لا يصلك مني مكروه، ولا ينالك مني أذى، بل أنتَ سالم من ناحيتي، وزاده خيرًا، فقال: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾، قال ابن عباس وغيره: أي لطيفًا، وقد استغفر له إبراهيم – عليه السلام – كما وعده في أدعيته،

---

1 ــ مقال لندى العتوم، 2020/9/2، موقع: https://e3arabi.com.

2 ــ من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، للأستاذ الدكتور/ فؤاد بن محمود بن محمد سندي، مكتبة مكة المكرمة، الطبعة الأولى 1424هـ – 2002م، ص 121 – 122.

3 ــ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (427/3).

فلما تبيَّن له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه؛ كما قال – تعالى –: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 114].

ما يستفاد من هذا الحوار:

1- التحلِّي بأعلى درجات الفضيلة ومنها الصدق؛ قال – تعالى –: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 41].

2- دعوة أقرب الناس إلى الداعية.

3- اللِّين في الكلام، وحسن الخلق في المعاملة؛ قال: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾.

4- بيان ضعف وعجز المعبودات من دون الله – تعالى.

5- النهي عن طاعة الشيطان، وأن طاعته تؤدِّي إلى عبادته[1].

3 ــ حوار إبراهيم عليه السلام مع الملك النمرود[2]:

منهجية إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى الله:

عندما أقام إبراهيم الحجة على عبدة التماثيل، كما أقامها على أبيه وعبدة النجوم والكواكب من قبل بشكل حاسم، لم يبق إلا أن تقام الحجة على الملك المتأله ومن يعبده.. وبذلك تكون الحجة قد قامت على جميع قومه، كما قال ربنا: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: 83].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 258].

هذه المناظرة بين إبراهيم والملك الجبار المتمرد.

مناظرةٌ ضرب الله عز وجل فيها مثلين، أحدهما لولي من أولياء الله، والمثل الآخر لولي من أولياء الطاغوت، ولذا قال ربنا سبحانه قبلها؟ ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: 257] هذا ما يتعلق بإبراهيم كنموذج ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: 257]، وهذا نموذج لأولياء الطاغوت، ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 257].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ [البقرة: 258].

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هذا الأسلوب يحمل التعجب، يعني هذا عجب أن ترى مثل هذا البشر الذي أنعم الله عليه وأعطاه الملك، ينازع الله العظيم جل جلاله في العظمة ورداء الكبرياء، وربنا سبحانه يقول كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار)...هذا الملك – النمرود ادعى القدرة على الخلق والإيجاد، والإماتة والإعدام، فأنكر على إبراهيم عليه السلام دعوتَه وأن الله تعالى هو رب العالمين ولا ربَّ سواه، وأخذ يدعي عِنادا وتكبرا أنه هو الإله، وادعى لنفسه الربوبية، فطغى وتجبر، وما هو إلا أحد العبيد الضعفاء، سأل إبراهيم: من ربك؟ فقال عليه السلام: ربي الذي يحيي ويميت، ربي يحيي الخلائق فتحيا، ويسلبُها الحياة فتموت، فهو المتفرد بالإحياء والإماتة، قال النمرود الجبار المستكبر: أنا أُحيي وأميت، أنا أحيي من أشاء بالعفوِ عنه بعد أن يكونَ قد صدر الحكم عليه بالقتل فينعم بالحياة، وأنا أميتُ من أشاء بأمري وأقضي عليه بحكمي، وقال: ءاخذُ رجلين قد استوجبا القتل، فأقتل أحدَهما فأكون قد أمته وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييتُه.

---

1 ــ مقال للدكتور مصطفى البغزاوي، 2013/4/29م، شبكة الألوكة.https://www.alukah.net/social/0/53724

2 ــ مقال الشيخ الرهواني محمد، 2014/9/4، موقع الألوكة: https://www.alukah.net

وهذا ليس بمعارضة للخليل عليه الصلاة والسلام، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة، وانقطاع عن الحقيقة والمألوف، الخليل عليه السلام استدل على وجود الخالق جل وعلا بقوله:(ربي الذي يحيي ويميت)، أن واهبَ الحياة هو الله، وأن الذي يُنهي الحياة هو الله، فالحياة تحتاج إلى خَلق تُنفخ فيه الروح، والموت يحتاج إلى خَلق تُنزع منه الروح، والله جل جلاله الحي القيوم هو حي باق على الدوام، يَهَبُ الحياة لكل مخلوق، الله الذي خلق الموت والحياة فهو الذي يحي ويميت.

تأملوا معاشر المؤمنين، الشجرة تكون في الشتاء يابسة، فإذا سقاها الله بالمطر، وجاء فصل الربيع اهتزت وأورقت وأثمرت، مَن أوْدع فيها الحياة؟

الجنين في بطن أمه مَن أوْدع فيها الحياة؟

فواهب الحياة هو الله، وخالق الموت هو الله، وهذا المِلك المتألِّه ماذا فعل؟ تأوّل الحياة على أنها عفو عن إنسان، والموتَ إيقاعُ القتل بآخر، ثم قال أنا أُحيي وأميت.

إنه يجادل في حقيقة هائلة، حقيقةِ منح الحياة وسلبها.

لكن إبراهيم عليه السلام لم يُرد أن يسترسل في جدل حول معنى الإحياء والإماتة، فعدل عن هذه السنة الكونية الخفية، إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية، ليبين لهذا الملك أن الرب ليس حاكمُ قوم في ركن من الأرض، إنما هو مصرف هذا الكون كله ومتصرف فيه، ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرعُ لهم.

فقال له إبراهيم: مادام أن عندك هذه الإمكانيات والقدرات، وأنك تحيي وتميت كما زعمت، فإن الله الذي أعبده ﴿يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: 258]، فهل تستطيع تغيير هذه السُّنَّة الإلهية.. هذا الكون له نظم وقوانين يمشي طبقا لها، قوانين خلقها الله، ولا تستطيع أنت ولا أي مخلوق كيفما كان شأنه أو مكانته أن يتحكم فيها، لو كنت صادقا في ادعائك وقدرتك وقوتك فلتغير نظام الكون وقوانينه..

ساعتها أحس الملك المتجبر بالعجز، وأخرسه التحدي، ولم يعرف ماذا يقول ولا كيف يتصرف.

إبراهيمُ عليه السلام أفحمه بالحجة القوية، وأظهر له جهله وسخف عقله أمام قومه، وهو أن الخالق العظيم المدبرَ لهذا العالم سبحانه الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاءُ ولا يمانَع ولا يُغالب، ولا ينازِعه في ذلك أحد من خلقه مهما أوتي من قدرة أو مكانة وسلطان.

كان قول إبراهيم كالصاعقة، لأن الموقف يتطلب من النمرود أن يُحدث ذلك في الحال، ولما لم يكن له قدرة لضعفه وعجزه، سكت وانقطعت حجته، شأنه شأن الظالمين لا يهديهم الله إلى الحق والصواب.

انقطع جواب من كان قبلَ قليل يَدَّعي أنه يحيي ويميت، وهذا يدل على عجزه، فجاء قول الحق سبحانه: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: 258].

وتأملوا في قول ربنا سبحانه: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: 258]، لو قال ربنا سبحانه: ﴿ فَبُهِتَ ﴾ وانتهى، لكان المعنى واضحا وكاملا، ولكنه قال: ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: 258]، وهذا يسميه علماء اللغة "الإظهار في مكان الإضمار". كان بإمكانه أن يُضمر ﴿الَّذِي كَفَرَ﴾، لكن لما أظهر ذلك، دل على أن هذا الذي ناظر وحاج إبراهيم كافر، وأن كل من عاند وخاصم وجادل في شرع الله عز وجل فيما سيأتي في كل زمان إلى أن تقوم الساعة أنه في حكم هذا الرجل فيكونُ حكمه الكفر، فليس هذا الحكم خاصا بهذا الذي جادل وحاج إبراهيم، بل كل من شابهه وعاند شرع الله فإنه يأخذ هذا الحكم، ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

ثالثا: الجدال في القرآن الكريم (موسى عليه السلام أنموذجا)

مر رسول الله ﷺ بمعارك كثيرة مع الكفر، فكان يحتاج إلى تثبيت مستمر كلما تعرض لشدة؛ لذلك تكرر القصص القرآني لرسول اللهﷺ على مدى عمر الدعوة، والقصص القرآني لا يراد به التأريخ لحياة الرسل السابقين، إنما إعطاء النبي محمد ﷺ عِبرةً وعظة بمَنْ سبقه من إخوانه الرسل؛ لذلك كانت القصة تأتي في عدة مواضع، وفي كل موضع لقطة معينة تناسب الحدث الذي نزلت فيه.

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) الشعراء.

واختصر هذا هنا فلم يشر إليه، بينما وسع في مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله؛ وهو موضوع الجدل في هذه السورة بين المشركين والنبي ﷺ.

وفي يونس بدأ بمشهد المواجهة مختصراً لم يعرض فيه آيتي العصا واليد ، واختصر كذلك في مشهد المباراة، بينما توسع هنا في كليهما .

وفي سورة طه توسع في مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه،واستطرد بعد مشهدي المواجهة والمباراة فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلاً، ولم يجاوز هنا مشهد الغرق والنجاة.

وكذلك لا نجد تكراراً في عرض القصة أبداً على كثرة ما عرضت في سور القرآن . لأن هذا التنويع في اختيار الحلقات التي تعرض، ومشاهد كل حلقة، والجانب الذي يختار من كل مشهد، وطريقة عرضه.. كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع، متناسقة مع هذا الموضع.

المشهد الأول

{وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون؟ قال: رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني، فأرسل إلى هارون . ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون . قال: كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا: إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل}..

الخطاب لرسول الله ﷺ بهذا القصص، بعدما قال له في مطلع السورة: { لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ نترل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين، وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون} ثم أخذ يقص عليه أنباء المكذبين المعرضين المستهزئين، وما حاق بهم من العذاب الأليم.

قال الشعراوي: لكن لماذا بدأ بقصة موسى عليه السلام بالذات؟

قالوا: لأن كفار مكة كفروا بك أنت، فلا تحزن؛ لأن غيرهم كان أفظع منهم، حيث ادعى الألوهية، وقال: { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي }[1].

والسياق هنا لم يذكر: أين ناداه ربه، ولا متى ناداه، وبدأ الحوار معه مباشرة، لكن في مواضع أخرى جاء تفصيل هذا كله[2].

{وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون؟}..

وهذا هو المشهد الأول: مشهد التكليف بالرسالة لموسى عليه السلام وهو يبدأ بإعلان صفة القوم: { القوم الظالمين} قال الشعراوي: أي: الذين ظلموا أنفسهم، بأنْ جعلوا لله تعالى شريكاً، والشرك قِمَّة الظلم[3]: { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[4].

قال سيد: فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال، وظلموا بني إسرائيل، بما كانوا يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويعذبونهم بالسخرة والنكال.. لذلك يقدم صفتهم ثم يعينهم: { قوم فرعون } ثم يعجب موسى من أمرهم ويعجب كل إنسان: { ألا يتقون؟ } ألا يخشون ربهم؟ ألا يخافون مغبة ظلمهم؟ ألا يرجعون عن غيهم؟ ألا إن أمرهم لعجيب يستحق التعجيب! وكذلك كل من كان على شاكلتهم من الظالمين!.

---

1 ــ القصص:38.

2 ــ تفسير الشعراوي، (1 / 6508).

3 ــ تفسير الشعراوي، (1 / 6508)

4 ــ لقمان:13.

وقال الشعراوي: ألا يتقون الله في ظلمهم لأنفسهم باتخاذهم مع الله شريكاً ولا إله غيره، وظلموا بني إسرائيل في أنهم يُذبِّحونَ أبناءهم ويستحيُون نساءهم.

لكن، لماذا تكلم عن قوم فرعون أولاً، ولم يعرض عليه هو أولاً، وهو رأس الفساد في القوم؟

ويجيب على هذا السؤال المثل القائل: (يا فرعون ماذا فرعنك؟ قال: لأنني لم أجد أحداً يردني)، فلو وقف له قومه ورَدَعوه لارتدع ، لكنهم تركوه، بل ساروا في رَكْبه إلى أنْ صار طاغية، وأعانوه حتى أصبح طاغوتاً.

قال ابن عاشور: وجملة: (ألا يتقون)، مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنه لّما أمره بالإتيان إليهم لدعوتهم ووصَفَهَم بالظالمين؛ كان الكلام مثيراً لسؤالٍ في نفس موسى عن مَدى ظلمهم، فجيء بما يدل على توغّلهم في الظلم، ودوامهم عليه، تقوية للباعث لِموسى على بلوغ الغاية في الدعوة، وتهيئة لتلقِّيه تكذيبَهم بدون مفاجأة، فيكون (ألا) من قوله : (ألا يتقون) مركباً من حرفين همزة الاستفهام و (لا) النافية، والاستفهام لإنكار انتفاء تقواهم، وتعجيب موسى من ذلك، فإن موسى كان مطّلعاً على أحوالهم إذ كان قد نشأ فيهم وقد عَلم مظالمهم وأعظمها الإشراك وقتلُ أنبياء بني إسرائيل...

والاتّقاء: الخوف والحذر، وحذف متعلق فعل (يتقون) لظهور أن المراد: ألا يتقون عواقب ظلمهم! وتقدم في قوله تعالى: (الذين عاهدتَ منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون)[1].

ويَعلم موسى من إجراء وصف الظلم وعدم التقوى على قوم فرعون في معرض أمره بالذهاب إليهم، أن من أول ما يبدأ به دعوتَهم أن يدعوهم إلى ترك الظلم وإلى التقوى[2].

قال الخازن: (ألا يتقون): أي يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته والإيمان به[3].

ولم يكن أمر فرعون وملئه جديداً على موسى عليه السلام فهو يعرفه، ويعرف ظلم فرعون وعتوه وجبروته، ويدرك أنها مهمة ضخمة وتكليف عظيم، ومن ثم يشكو إلى ربه ما به من ضعف وقصور لا ليتنصل أو يعتذر عن التكليف، ولكن ليطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير.

{قال: رب إني أخاف أن يكذبون. ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون. ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون}.

والظاهر من حكاية قوله عليه السلام أن خوفه ليس من مجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده، إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها في سورة طه: { واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي }، ومن شأن هذه الحبسة أن تنشئ حالة من ضيق الصدر، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام، وتزداد كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقاً.. وهكذا.. وهي حالة معروفة، فمن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون، فشكا إلى ربه ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته، وطلب إليه أن يوحي إلى هارون أخيه، ويشركه معه في الرسالة اتقاء للتقصير في أداء التكليف، لا نكوصاً ولا اعتذاراً عن التكليف، فهارون أفصح لساناً، ومن ثم هو أهدأ انفعالاً؛ فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان، ولقد دعا موسى ربه كما ورد في سورة طه ليحل هذه العقدة من لسانه، ولكنه زيادة في الاحتياط للنهوض بالتكليف طلب معه أخاه هارون وزيراً ومعيناً..

وكذلك الشأن في قوله: {ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون}.. فإن ذكره هنا ليس للخوف من المواجهة، والتخلي عن التكليف، ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون، حتى إذا قتلوه قام هارون من بعده بالرسالة، وأتم الواجب كما أمره ربه دون تعويق.

فهو الاحتياط للدعوة لا للداعية، الاحتياط من أن يحتبس لسانه في الأولى، وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه وبيانها، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة، والاحتياط من أن يقتلوه في الثانية، فتتوقف دعوة ربه التي كلف أداءها، وهو على إبلاغها واطرادها حريص، وهذا هو الذي يليق بموسى عليه السلام الذي صنعه الله على عينه، واصطنعه لنفسه.

---

1 ــ الأنفال:56.

2 ــ التحرير والتنوير، ابن عاشور، 104/19ــ 105.

3 ــ لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، 115/5.

ولما علمه ربه من حرصه هذا وإشفاقه واحتياطه أجابه إلى ما سأل، وطمأنه مما يخاف، والتعبير هنا يختصر مرحلة الاستجابة، ومرحلة الإرسال إلى هارون، ومرحلة وصول موسى إلى مصر ولقائه لهارون؛ ويبرز مشهد موسى وهارون مجتمعين يتلقيان أمر ربهما الكريم، في نفس اللحظة التي يطمئن الله فيها موسى، وينفي مخاوفه نفياً شديداً، في لفظة تستخدم أصلاً للردع وهو كلمة { كلا }!

{قال: كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون. فأتيا فرعون فقولا: إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل}. كلا... لن يضيق صدرك ويحتبس لسانك... وكلا لن يقتلوك.

فأبعد هذا كله عن بالك بشدة، واذهب أنت وأخوك: { فاذهبا بآياتنا }، وقد شهد موسى منها العصا واليد البيضاء، والسياق يختصرهما هنا لأن التركيز في هذه السورة موجه إلى موقف المواجهة، وموقف السحرة، وموقف الغرق والنجاة، اذهبا: { إنا معكم مستمعون } فأية قوة؟ وأي سلطان؟ وأي حماية ورعاية وأمان؟ والله معهما، ومع كل إنسان في كل لحظة وفي كل مكان، ولكن الصحبة المقصودة هنا هي صحبة النصر والتأييد، فهو يرسمها في صورة الاستماع، الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه، وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة، وذلك على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير.

اذهبا: { فأتيا فرعون }، فأخبراه بمهمتكما في غير حذر ولا تلجلج: { فقولا: إنا رسول رب العالمين }، وهما اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة، فهما رسول، رسول رب العالمين، في وجه فرعون الذي يدعي الألوهية، ويقول لقومه: { ما علمت لكم من إله غيري }، فهي المواجهة القوية الصريحة بحقيقة التوحيد منذ اللحظة الأولى، بلا تدرج فيها ولا حذر، فهي حقيقة واحدة لا تحتمل التدرج والمداراة.

{ إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل }.. وواضح من هذا ومن أمثاله في قصة موسى عليه السلام في القرآن، أنه لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته، إنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام فبهت هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد.

وإلى هنا نحن أمام مشهد البعثة والوحي والتكليف، ولكن الستار يسدل، لنجدنا أمام مشهد المواجهة، وقد اختصر ما هو مفهوم بين المشهدين على طريقة العرض القرآنية الفنية:

{قال ألم نُرَبِّكَ فِينا ولِيداً، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين؟ قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمه تمنها علي أن عَبَّدتَّ بني إسرائيل}.

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجه بهذه الدعوى الضخمة: { إنا رسول رب العالمين }، ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم! { أن أرسل معنا بني إسرائيل }، فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيباً في قصره منذ أن التقطوا تابوته، وأنه هرب بعد قتله للقبطي الذي وجده يتعارك مع الإسرائيلي، وقيل: إن هذا القبطي كان من حاشية فرعون، فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن، وهذه الدعوى الضخمة التي يواجهه بها بعد عشر سنين! ومن ثم بدأ فرعون متهكماً مستهزئاً مستعجباً:

{قال: ألم نربك فينا ولِيداً، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ وفعلت فعلتك التي فعلت، وأنت من الكافرين}.

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة؟ ولتخرج على الملك الذي نشأت فيه بيته، وتدعو إلى إله غيره؟!

وما بالك وقد لبثت فينا من عمرك سنين لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التي تدعيها اليوم؛ و لم تخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم؟![1]

قال الشعراوي: ويريد فرعون أنْ يُذكِّر موسى بما كان من أمر تربيته في بيته لعدة سنوات، حتى شَبَّ وكبر، وكأنه يُوبِّخه كيف يقف منه هذا الموقف العدائي بعدما كان منه.

1 ــ في ظلال القرآن، سيد قطب، 342/5.

{وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ}[1] ويقال: إن موسى لبث في بيت فرعون حتى سِنِّ الثامنة عشرة، أو سِنِّ الثلاثين، فالمعنى أنه ربَّاه ولبث معه أيضاً عدة سنوات.

والمتأمل في هذه الحجة التي يظنها فرعون لصالحه يجد أنها ضده، وأنها تكشف عن غبائه، فلو كان إلهاً كما يدعي لعرف أن هلاكه سيكون على يدي هذا الطفل الذي ضَمَّه إليه ورعاه.

ويذكره بحادث مقتل القبطي في تهويل وتجسيم: {وفعلت فعلتك التي فعلت}.. فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة! فعلتها {وأنت من الكافرين} برب العالمين الذي تقول به اليوم، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين!

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه رداً قاتلاً لا يملك موسى عليه السلام معه جواباً، ولا يستطيع مقاومة، وبخاصة حكاية القتل، ومايمكن أن يعقبها من قصاص، يتهدده به من وراء الكلمات!

ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه فأزال حبسة لسانه انطلق يجيب:

{قال: فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم، فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل! }..

فعلت تلك الفعلة وأنا بعد جاهل، أندفع اندفاع العصبية لقومي، لا اندفاع العقيدة التي عرفتها اليوم، بما أعطاني ربي من الحكمة.

يقول موسى عليه السلام: أنا لا أنكر أنني قتلتُ، لكنني قتلتُ وأنا من الضالين، يعني: الجاهلين بما يترتب على عملية القتل، وما كنت أعتقدُ أبداً أن هذه الوَكْزة ستقضي على الرجل.

{ ففررت منكم لما خفتكم } على نفسي.. فقسم الله لي الخير: ووهب لي الحكمة، { وجعلني من المرسلين}، فلست بدعاً من الأمر، إنما أنا واحد من الرعيل: { من المرسلين }.

ثم يجيبه تهكماً بتهكم.. ولكن بالحق.. { وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل }.. فما كانت تربيتي في بيتك وليداً إلا من جراء استعبادك لبني إسرائيل، وقتلك أبناءهم ، مما اضطر أمي أن تلقيني في التابوت، فتقذف بالتابوت في الماء، فتلتقطوني، فأربى في بيتك، لا في بيت أبويّ، فهل هذا هو ما تمنه علي، وهل هذا هو فضلك العظيم؟!

ففرعون في حين كان يقتل الأطفال من بني إسرائيل، ويستحيي البنات، جاءه هذا الطفل بهذه الطريقة اللافتة للنظر، فكان عليهم أنْ يفهموا أن مَنْ أُلقِي في التابوت وفي اليمِّ بافتعال، هو بهدف نجاته من القتل، فلو كان فرعون إلهاً، فكيف مرّت عليه هذه الحيلة وجازتْ عليه؟

وهذا يدل على أن الله تعالى إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوي العقول عقولهم، وحال بين المرء وقلبه، ويدل على غباء قومه؛ لأنهم لو تأملوا هذه المسألة لظهر لهم كذب فرعون في ادعائه الألوهية.

وكذلك مما يدل على كذب فرعون؛ أن موسى نجا من بين مواليد ذلك العام الذي قرر فيه قتل كل مولود يولد، لأنه سيكون سببا في هلاكه، كما أشار عليه الكهنة، ولكن الله أراد أن يعيش هذا المولود في قصره، ويتربى ويترعرع بحماية فرعون نفسه، وهذه حجة بالغة لم يدركها فرعون الذي ادعى الألوهية المزيفة، والتي يمن فيها على موسى عليه السلام.

كأنه يقول: أنا وكزتُ الرجل، هذا صحيح، فمات، وهذا خطأ غير مقصود، وإنني مظلوم فيه؛ لأن الله قد أعطاني حكماً وقدرة لأضع الأشياء في محلها.

ليس هذا فحسب، إنما أيضاً: { وَجَعَلَنِي مِنَ المرسلين }[2].

يعني : ما مَّن به فرعون على موسى من قوله: { أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ }[3].

---

1 ــ الشعراء: 18.

2 ــ الشعراء:21.

3 ــ الشعراء: 18ــ 19.

كأنه يقول له: أتُمنُّ عليَّ بهذه الأشياء، وتذكر هذه الحسنة، وهي لا تساوي شيئاً لو قارنتَها بما حدث منك من استعباد بني إسرائيل وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، وتسخيرهم في خدمتك.

وقتل الذّكْران واستحياء الإناث، لا يعني الرأفة بهن، إنما يعني لَهُنَّ الذلة والهوان، حين لا تجد المرأة من محارمها مَنْ يحميها أو يدافع عنها، فتبقى بعد الرجال في هوان وذِلّة في خدمة فرعون.

ثم تمن علي بتلك المزية، وأنت لم تختارني من بين قومي بإرادتك لأعيش في قصرك وأتربى بين يديك، بل قادني إليك رب العالمين...

عندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة، وراح يسأله عن صميم دعواه.. ولكن في تجاهل وهزء وسوء أدب في حق الله الكريم :{ قال فرعون: وما رب العالمين؟ }..

إنه قبحه الله يسأل: أي شيء يكون رب العالمين الذي تقول: إنك من عنده رسول؟ وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه، المتهكم على القول والقائل، المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث!

يعني: مسألة جديدة هذه الذي جئتَ بها يا موسى، فمن رَبُّ العالمين الذي تتحدث عنه؟

فيجيبه موسى عليه السلام بالصفة المشتملة على ربوبيته تعالى للكون المنظور كله وما فيه :

{قال: رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين}..

وهو جواب يكافئ ذلك التجاهل ويغطيه.. إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه سلطانك يا فرعون ولا علمك. وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب وهذا الجزء من وادي النيل.

وهو ملك صغير ضئيل، كالذرة أو الهباءة في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما، وكذلك كان جواب موسى عليه السلام يحمل استصغار ما يدعيه فرعون مع بطلانه، وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل، والتفكير فيمن يكون ربه.. فهو رب العالمين!.. ثم عقب على هذا التوجيه بما حكايته: { إن كنتم موقنين } فهذا وحده هو الذي يحسن اليقين به والتصديق.

لأن السماوات بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر وأفلاك وأبراج، والأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وقِفَار ونبات وحيوان وإنسان. قد وُجِدتْ قبل أن توجد أنت أيها الإله الفرعون!!

إذن: رَدَّ عليه بشيء ثبت في الكون قبل مجيئه، وقبل مولده، وكأن المعنى المراد لموسى عليه السلام: أخبرني يا فرعون، يا مَنْ تدعي الألوهية، ما الذي زاد في الكون بألوهيتك له؟ وإنْ كان هذا الكون كله بسمائه وأرضه لله رب العالمين، فماذا فعلتَ أنت؟

ولم يقتصر على السماوات والأرض، وإنما {وَمَا بَيْنَهُمَآ}[1]، أي: من هواء وطير يَسْبح في الفضاء، وكانوا لا يعرفون ما نعرفه الآن من أسرار الهواء، وانتقال الصوت والصورة من خلاله، ففي جَوِّ السماء فيما بين السماء والأرض من الأسرار ما يستحق التأمل.

ثم يتلطف معهم فيقول: {إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ}، يعني: إنْ كنتم موقنين بأن هذه الأشياء لم يخلقها إلا الله.

والتفت فرعون إلى من حوله، يعجبهم من هذا القول، أو لعله يصرفهم عن التأثر به، على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب:{قال لمن حوله : ألا تستمعون؟}..

ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب، الذي لا عهد لنا به، ولا قاله أحد نعرفه!

يقول فرعون لمن حوله من أتباعه الذين أقروا له بالألوهية: ألا تستمعون لما يقول؟ يعني: موسى عليه السلام. وهذه الكلمة لا يقولها فرعون إلا إذا أحسَّ من قومه ارتياحاً لما قاله موسى من نَفْي الربوبية والألوهية عن فرعون ونسبتها لله تعالى، خالق السموات والأرض.

وكان فرعون ينتظر من قومه أنْ يتصدَّوْا لما يقوله موسى، فينهروه ويُسْكِتوه، لكن لم يحدث شيء من هذا، مما يدل على أنهم كانوا يتمنّونَ أن ينتصر موسى، وأن يندحر فرعون؛ لأنه كبت حرياتهم وآراءهم، كما كانوا يعرفون كذبه وينتظرون الخلاص منه.

بدليل ما حكاه القرآن عن الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون، وبدليل الذين أتوا فيما بعد وحَسَّنوا له مسألة السحرة وهم يريدون أن يُهزَم.

ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين.

---

1 ــ الشعراء: 24.

مستغلا.. تعجب فرعون وقوله للملأ من حوله: ألا تستمعون.. فتفتح آذانهم لأن يستمع القوم أكثر مما كانوا عليه من قبل، فيستغل موسى سماع الملأ وهم مهيئون للسماع والتأمل:

{قال: ربكم ورب أبائكم الأولين}..

وهذه أشد مساساً بفرعون ودعواه وأوضاعه، فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه، فما هو إلا واحد من عبيده، لا إله كما يدعي بين قومه! وهو رب قومه، فليس فرعون ربهم كما يزعم عليهم! وهو رب آبائهم الأولين، فالوراثة التي تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة، فما كان من قبل إلا الله ربا للعالمين!

وقبل أنْ يردَّ أحد من قوم فرعون بادرهم موسى عليه السلام: {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ}.

هنا ينقل موسى عليه السلام فرعونَ من الجو الكوني المحيط به في السماء والأرض وما بينهما إلى ذات نفسه، يقول له: إنَّ لك آباءقبل أنْ تُولد، وقبل أن تدعي الألوهية، فمن كان ربهم؟

فلما ضَيَّق موسى عليه السلام الخناق على فرعون، أراد أنْ يخرج من هذا الجدل وهذه المناظرة الخاسرة فقال محاولاً إنقاذ موقفه: { قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ}.

وإنها للقاصمة لفرعون... فما يطيق عليها سكوتا والملأ حوله يستمعون.. ومن ثم يرمي قائلها في تهكم بالجنون:

{قال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون}..

إن رسولكم الذي أرسل إليكم.. يريد أن يتهكم على مسألة الرسالة في ذاتها، فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها، ويتهم موسى عليه السلام بالجنون، ليذهب أثر مقالته التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم، وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين.

وهذه العبارة من فرعون تفضح المتكلِّم بها، فقد شهد لموسى بأنه رسول، وخانه لفظه من حيث لا يدري.

ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين:{ قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما . إن كنتم تعقلون }..

فإن كان وصفي ذاك لرب العالمين قول مجنون، فما بالك بأنه رب المشرق والمغرب وما بينهما... فهل يجرأ فرعون هذا الذي ينعتني بالجنون أن يدعي تصريفهما، بهذه الحركة اللطيفة، دون تخلف ودون تعطل، فأين ذهبت عقولكم.. فمن هو المجنون بحق، هل أنا أم فرعون هذا الذي ادعى أنه إله ولكنه يظل حائرا مبهوتا أمام شروق الشمس وطلوع النهار الذي جعل فيه معايش الناس، وبين غروبها الذي تسكن فيه النفوس وترتاح من عناء ومشاق النهار...

والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم؛ ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما، وشدة ألفتهما، واللفظ يدل على الشروق والغروب، كما يدل على مكاني الشروق والغروب، وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المتجبرين أن يدعي تصريفهما، فمن يصرفهما إذن ومن ينشئهما بهذا الاطراد الذي لا يتخلف مرة ولا يبطئ عن أجله المرسوم؟ إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هزا، ويوقظ العقول الغافية إيقاظاً. وموسى عليه السلام يثير مشاعرهم ، ويدعوهم إلى التدبر والتفكير: { إن كنتم تعقلون }..

إذن: يرد موسى عليه السلام بحجة أخرى، لكن يختمها هذه المرة بقوله: { إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }[1]، وقد قال في سابقتها: { إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ }[2]، كأنه يقول لفرعون: ما دام قد وصل بك الأمر لأنْ تتهمني بالجنون فلن أقول إنْ كنتم موقنين، إنما إنْ كنتم تعقلون، فجاء بمقابل الجنون، العقل.. الذي هو مفتاح تلك القلوب المقفلة بغشاوة الاستخفاف من فرعون بهم.

والطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية.

فيُنهي فرعون هذا النقاش، ويأتي بخلاصة الأمر كما يرى، فيقول: { قَالَ لَئِنِ اتخذت }

---

1 ــ الشعراء: 28.

2 ــ الشعراء: 24.

وهذا من فرعون إفلاس في الحجة، ولو كان عنده رَدٌّ لما يقوله موسى لردّ عليه، ولَقرع الحجة بالحجة، لكنه تقوَّى على خَصْمه بأن هدده بالسجن والإبعاد، وكان المسجون عندهم يظل في السجن حتى الموت.

ولم يُراع فرعون في هذه المسألة الناس من حوله، أن يكتشفوا هذا الإفلاس، وهذا الحمق في رَدِّه[1].

قال سيد: ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب، فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين:

{قال: لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين}..

هذه هي الحجة وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين، فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد!

غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه.. وكيف وهو رسول الله؟ والله معه ومع أخيه؟ فإذا هو يفتح الصفحة التي أراد فرعون أن يغلقها ويستريح، يفتحها بقول جديد، وبرهان جديد[2]: { قال: أولو جئتك بشيء مبين؟ }..

يعني: إذا لم تقنع بكل الحجج السابقة، فهل لو جئتك بآية واضحة دالة على صدق رسالتي، أتجعلني أيضاً من المسجونين؟

انظر إلى تعارض فرعون مع نفسه، فكان عليه ساعةَ أنْ يسمع من موسى هذا الكلام أنْ يُصر على سجنه، لكن الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يُظهر حجته، فيجعل فرعون هو الذي يطلبها بنفسه: { قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين }[3] وما كان لموسى أن يأتي بآية إلا أنْ يطلبها منه فرعون.

وحتى لو جئتك ببرهان واضح على صدق رسالتي فإنك تجعلني من المسجونين؟ وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى؛ ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته، وهو يدعي أنه مجنون، ومن ثم وجد نفسه مضطراً أن يطلب منه الدليل: {قال: فأت به إن كنت من الصادقين}..

إن كنت من الصادقين في دعواك؛ أو إن كنت من الصادقين في أن لديك شيئاً مبيناً، فهو ما يزال يشكك في موسى، خيفة أن تترك حجته في نفوس القوم شيئاً.

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين؛ وقد أخرهما حتى بلغ التحدي من فرعون أقصاه :

{ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين }..

ومعنى { ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ }[4] يعني: بيِّن الثعبانية، فيه حياة وحركة، وقال { ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ } يعني: واضح للجميع؛ لأنهم كانوا يجيدون هذه المسألة ويُخيِّلون للناس مثل هذه الأشياء، ويجعلونها تسعى وتتحرك، ولم تكن عصا موسى كذلك، إنما كانت ثعباناً مبيناً واضحاً وحقيقياً لا يشكّ في حقيقته أحد.

والمتتبع للقطات المختلفة لهذه الحادثة في القرآن الكريم يجد السياق يُسمِّيها مرة ثعباناً، ومرة حية، ومرة جاناً، لماذا؟ قالوا: لأنها جمعت كل هذه الصفات: فهي خفة حركتها كأنها جان، وفي شكلها المرعب كأنها حية، وفي التلوِّي كأنها ثعبان، والجان: فرخ الحية.

يعني: أخرج يده { فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ }[5]، مع أن موسى عليه السلام كان آدم اللون يعني فيه سُمْرة، ومع ذلك خرجتْ بيضاء، لها شعاع وبريق يأخذ بالأبصار.

---

1 ــ تفسير الشعراوي - (1 / 6516ــ 6527).

2 ــ في ظلال القرآن، 344/5.

3 ــ الشعراء: 31.

4 ــ الشعراء: 32.

5 ــ الشعراء: 33.

وبمقارنة هذه الآية بآية سورة القصص نجد أنه حذف من آية سورة الشعراء الجيب، وهو فتحة الثوب من أعلى، لا الجيب المتعارف عليه، والذي نضع فيه النقود مثلاً، وكانوا في الماضي يجعلون الجيب بداخل ملابس الإنسان، ليكون في مأمن، فإذا أراد الإنسان شيئاً فيه مَدَّ يده من خلال الفتحة العليا للثوب، فسُمِّيتْ جيباً.

والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلاً إلى ثعبان تدب فيه الحياة، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلا، يدل على هذا بقوله: { فإذا هي }، فلم يكن الأمر تخييلا، كما هو الحال في السحر الذي لا يغير طبائع الأشياء، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة.

ومعجزة الحياة التي تدب من حيث لا يعلم البشر، معجزة تقع في كل لحظة، ولكن الناس لا يلقون لها بالا، لطول الألفة والتكرار، أو لأنهم لا يشهدون التحول على سبيل التحدي فاما في مثل هذا المشهد . وموسى عليه السلام يلقي في وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يزلزل ويرهب.

وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها؛ فأسرع يقاومها ويدفعها؛ وهو يحس ضعف موقفه ، ويكاد يتملق القوم من حوله؛ ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ، ليغطي على وقع المعجزة المزلزلة :

{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون؟}..

قال لعليْة القوم، الذين يملأون العيون، ويتصدَّرون المجالس من حوله: {إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ }[1]، فاتهمه بالسحر ليخرج من ورطته وقال: ساحر لأن موسى لم يمارس هذه المسألة إلا مرة واحدة، هي التي أجراها أمام فرعون، لكن الملأ على علم بالسحر وإِلْف له، وعندهم سحارون كثيرون.

وفَرْق بين ساحر وسحَّار: ساحر لمن مارس هذه العملية مرة واحدة، إنما سحَّار مبالغة تدل على أنها أصبحت حِرْفته، مثل ناجر ونجّار، وخائط وخيّاط، و{عَلِيمٌ}، أي: بسحره.

وفي قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كان يسميها سحراً؛ فهو يصف صاحبها بأنه ساحر: {عليم}، ويبدو ذعره من تأثر القوم بها فهو يغريهم به: { يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره }.

ثم التفت إلى موسى وقال له: { قال: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يموسى؟ } طه:57.

ويبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلها، فيطلب أمرهم ومشورتهم: { فماذا تأمرون؟ } ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون!

وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذ يلينون في القول بعد التجبر، ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى، ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون!

هنا يستعدي فرعون قومه على موسى، ويُحذرهم أنه سيفسد العامة والدهماء، وتكون له الأغلبية، وتكون له شيعة يناصرونه عليكم حتى يُخرِجكم من أرضكم، وهذا أقلّ ما يُنتظر منه، يريد أن يهيج عليه الملأ من قومه؛ ليكونوا أعداء له يقفون في صَفِّ فرعون.

وعجيب أنْ يقول الفرعون الإله: { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ }[2]، فهذه هي الألوهية الكاذبة؛ التي انحدرتْ إلى مرتبة العبيد، ومتى يأخذ الإله رأي عبيده، ويطلب منهم المعونة والمشورة؟ ولو كان إلهاً بحق لكان عنده الحل ولديه الردّ.

فلما نزل فرعون من منزلة الألوهية، وطلب الاستعانة بالملأ من قومه التفتوا إلى كذبه، ووجدوا الفرصة مواتية للخلاص منه، ومما يدل على أن أكثرهم وجمهرتهم كانوا يجارونه على مضض، وينتظرون لحظة الخلاص من قَهْره وكذبه؛ لذلك قالوا : { قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ }

أشار عليه الملأ؛ وقد خدعتهم مكيدته، وهم شركاء فرعون في باطله، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان؛ وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير، حين ترى معجزتي موسى وتسمع إلى ما يقول . . أشاروا عليه أن يلقى سحره بسحر مثله، بعد التهيئة والاستعداد:

---

1 ــ الشعراء: 34.

2 ــ الشعراء: 35.

{ قالوا: أرجه وأخاه: وابعث في المدائن حاشرين، يأتوك بكل سحار عليم }[1]..

أي أمهله وأخاه إلى أجل؛ وابعث رسلك إلى مدائن مصر الكبرى، يجمعون السحرة المهرة، لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه.

{ أَرْجِهْ } من الإرجاء وهو التأخير، أي: أخّره وأخاه لمدة: { وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ }، ابعث رسلك يجمعون السَّحارين من أنحاء البلاد، ليقابلوا بسحرهم موسى وهارون، والمدائن: جمع مدينة.

وقال: { سَحَّارٍ }، بصيغة المبالغة { عَلِيمٍ } أي: بفنون السِّحْر وألا عيب السَّحَرة.

وقال فرعون لموسى: { فنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى }[2]، قال له موسى: { قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى }[3].

أي: أخذوا يدعُون الناس، وكأنهم في حملة دعاية وتأييد، إما لموسى من أنصاره الكارهين لفرعون في الخفاء، وإما لفرعون، فكان هؤلاء وهؤلاء حريصين على حضور هذه المباراة.

إننا نشاهد الجمع الغفير من الجماهير يتجمع لمشاهدة مباراة في كرة القدم مثلاً، فما بالك بمباراة بين سحرة مَنْ يدَّعي الألوهية وموسى الذي جاء برسالة جديدة يقول: إن له إلهاً غير هذا الإله؟ إنه حَدَثٌ هَزَّ الدنيا كلها، وجذب الجميع لمشاهدته.

المشهد الثاني:

وهنا يسدل الستار على هذا المشهد ليرفع على مشهد السحرة يحشدون، والناس يجمعون للمباراة، وتبث فيهم الحماسة للسحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان؛ وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل، أو بين الإيمان والطغيان.

{ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين؟ }..

الميقات : أي الوقت المعلوم، وفي آية أخرى: { قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة }، وكان يوماً مشهوداً عندهم، ترتدي في الفتيات أبهى حُلَلها، وكان يوم عيد يختارون فيه عروس النيل التي سيُلْقونها فيه، فحدد اليوم، ثم لم يترك اليوم على إطلاقه، إنما حدد من اليوم وقت الضحى: { وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى }.

وفي لقطة أخرى حدد المكان، فقال: { مَكَاناً سُوًى }، يعني: فيه سوائية، إما باستواء المكان حتى يتمكّن الجميع من رؤية هذه المباراة السحرية، بحيث تكون في ساحة مستوية الأرض، أو يكون مكاناً سواسية متوسطاً بين المدائن التي سيجمع منها السحرة، بحيث لا يكون متطرفاً، يشقّ على بعضهم حضوره.

وهكذا تتكاتف اللقطات المختلفة لترسم الصورة الكاملة للقصة.

ونرى في هذه المشورة حِرْصَ الملأ على إتمام هذا اللقاء، وأن يكون على رؤوس الأشهاد، لأنهم يعلمون أنها ستكون لصالح موسى، وسوف يفضح هذا اللقاءُ كذبَ فرعون في ادعائه الألوهية.

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير: {هل أنتم مجتمعون، لعلنا نتبع السحرة؟}، هل لكم في التجمع وعدم التخلف عن الموعد، ليترقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي! والجماهير دائماً تتجمع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس، وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى عليه السلام!

ثم يجيء مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المباراة؛ يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين؛ ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم!

{ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم، وإنكم إذن لم المقربين }..

---

1 ــ الشعراء: 36ــ 37.

2 ــ طه: 58.

3 ــ طه:59.

وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية؛ تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة، وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائماً في كل مكان وفي كل زمان.

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع، وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر، يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه، وهو بزعمه الملك والإله!..

فانظر إلى مسيرة الإله فرعون في رعيته، فالإله الحق يُطْعِم ولا يُطْعم، ويجير ولا يُجَار عليه، الإله الحق يُعطي ولا يأخذ، ولما اجتمع السحرة وهم أبطال هذه المباراة، ويعلمون مدى حاجة فرعون إليهم في هذا الموقف؛ لذلك بادروا بالاتفاق معه والاشتراط عليه: إنْ كنت تُسخِّر الناس في خدمتك دون أجر، فهذه المسألة تختلف، ولن تمر هكذا دون أجر.

وهذا دليل على معرفتهم بفرعون، وأنه رجل (أَكَلْتِ)، لذلك اشترطوا عليه أجراً إنْ كانوا هم الغالبين، ولا ندري فربما جاء آخر يهدد هذه الألوهية، فنحن ندخركم لمثل هذا الموقف.

هنا يتنازل فرعون عن تعاليه وكبريائه ويذعن لشروط سَحرته، بل ويزيدهم فوق ما طلبوا {وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين}[1]، فسوف تكونون من خاصتنا، نستعين بكم في مثل هذه الأمور، ولا نستغني عنكم؛ لأنكم الذين حافظتم على باطل ألوهيتنا.

هنا كلام محذوف، نعرفه من سياق القصة؛ لأن الآية السابقة كان الكلام ما يزال بين فرعون والسحرة، والقرآن يحذف بعض الأحداث اعتماداً على فِطْنة السامع أو القارىء، كما قلنا في قصة الهدهد مع سيدنا سليمان، حيث قال له: { اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ }[2].

ثم قال بعدها: { قَالَتْ ياأيها الملأ إِنِي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ }[3]، وحذف ما بين هذين الحدثيْن مما نعلمه نحن من السياق[4].

المشهد الثالث:

ثم إذا مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسام: { قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون. فألقوا حبالهم وعصيهم، وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون: فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، فألقي السحرة ساجدين. قالوا: آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون. قال: آمنتم له قبل أن آذن لكم! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم أجمعين. قالوا: لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين}.

ويبدأ المشهد هادئاً عادياً، إلا أنه يشي منذ البدء باطمئنان موسى إلى الحق الذي معه؛ وقلة أكتراثه لجموع السحرة المحشودين من المدائن، المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة، ووراءهم فرعون وملؤه، وحولهم تلك الجماهير المضللة المخدوعة.. قال تعالى:

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ طه:61ــ 65.

يتجلى هذا الاطمئنان في تركه إياهم يبدأون:{ قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون }[5]..

هذه هي الغاية التي انتهى إليها بعد المحاورة مع السحرة.

وفي التعبير ذاته ما يشي بالاستهانة: { ألقوا ما أنتم ملقون }.. بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام.

وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزته:

{ فألقوا حبالهم وعصيهم؛ وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون }..

---

1 ــ الشعراء:42.

2 ــ النمل:28.

3 ــ النمل: 29.

4 ــ تفسير الشعراوي، (1 /6528ــ 6540).

5 ــ الشعراء: 43.

ولا يفصل السياق هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيهم ، كما فصله في سورة الأعراف وطه، ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق[1]...

قال الشعراوي: فكانت العصيّ والحبال هي آلات سحرهم: { وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون }[2]، بعزة فرعون: هذا قسمهم، وما أخيبه من قسم؛ لأن فرعون لا يُغلَب ولا يُقهر في نظرهم، وسبق أن أوضحنا أن العزة تعني عدم القهر وعدم الغلبة، لكن عزة فرعون عزة كاذبة وأنفة وكبرياء بلا رصيد من حق، وعزة بالإثم كالتي قال الله عنها: { وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتق الله أَخَذَتْهُ العزة بالإثم }[3].

وقال تعالى: { ص والقرآن ذِي الذكر * بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ }[4]، أي: عزة بإثم، وعزة بباطل.

وينتهي مسارعاً إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل؛ لأن هذا هو هدف السورة الأصيل.

{فألقى موسى عصاه ، فإذا هي تلقف ما يأفكون}..

و لم يَأْت إلقاء موسى عليه السلام لعصاه مباشرة بعد أن ألقى السحرة، إنما هنا أحداث ذُكِرتْ في آيات أخرى، وفي لقطات أخرى للقصة، يقول تعالى : { فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى }[5].

{ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صنعوا إِنَّمَا صَنَعُواْ}[6].

هكذا كانت الصورة، فلما خاف موسى ثبَّته ربه، وأيّده بالحق وبالحجة، وتابعه فيما يفعل لحظةً بلحظة؛ ليوجهه وليُعدِّل سلوكه، ويشدّ على قلبه، وما كان الحق تبارك وتعالى ليرسله ثم يتخلى عنه، وقد قال له ربه قبل ذلك: {وَلِتُصْنَعَ على عيني }[7]، وقال: { إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى }[8]، فالحق سبحانه يعطي نبيه موسى الأوامر، ويعطيه الحجة لتنفيذها، ثم يتابعه بعنايته ورعايته.

فحينما تجمع هذه اللقطات تجدها تستوعب الحدث، ويُكمّل بعضها بعضاً، وهذا يظنه البعض تكراراً، وليس هو كذلك.

إذن: جاء إلقاء موسى لعصاه بعد توجيه جديد من الله أثناء المعركة: { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ }[9]، وهنا: {فألقى موسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ }[10]، ومعنى { تَلْقَفُ }، تبتلع وتلتهم في سرعة وقوة، أما السرعة واختصار الزمن والقوة، فتدل على الأخذ بشدة وعُنْف، وفي هذا دليل على أنه خاض المعركة بقوة، فلم تضعف قوته لما رأى من ألاعيب السَّحَرة.

ومعنى: { مَا يَأْفِكُونَ } من الإفك يعني: قلْب الحقائق؛ لذلك سَمَّوْا الكذب إفْكاً؛ لأنه يقلب الحقيقة ويُغير الواقع .

ومنها: { والمؤتفكة أهوى }[11]، وهي القرى الظالمة التي أهلكها الله، فجعل عاليها سافلها.

وسَمَّى ما يفعله السحرة إفكاً؛ لأنهم يُغيِّرون الحقيقة، ويُخيِّلون للناس غيرها.

ووقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة؛ فلقد بذلوا غاية الجهد في فنهم الذي عاشوا به وأتقنوه؛ وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه، وهم جمع كثير، محشود من كل مكان، وموسى وحده، وليس معه إلا عصاه، ثم إذا هي تلقف ما يأفكون؛ واللقف أسرع حركة للأكل، وعهدهم بالسحر أن يكون تخييلاً، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقاً، فلا تبقي لها أثراً، ولو كان ما جاء به موسى سحراً، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها، ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلاً!

عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلاً، وهم أعرف الناس بأنه الحق:

{فألقي السحرة ساجدين. قالوا: آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون}..

---

1 ــ في ظلال القرآن - (5 / 346)

2 ــ الشعراء:44.

3 ــ البقرة:206.

4 ــ ص:12.

5 ــ طه:66.

6 ــ طه: 67ــ69.

7 ــ طه:39.

8 ــ طه:46.

9 ــ طه:69.

10 ــ الشعراء:45.

11 ــ النجم:53.

وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، و لم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية، ولكن الحق الذي مس قلوبهم قد حولهم تحويلاً، لقد كانت هزة رجتهم رجاً، وخضتهم خضاً؛ ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزالت عنها ركام الضلال، وجعلتها صافية حية خاشعة للحق، عامرة بالإيمان، في لحظات قصار، فإذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجداً، بغير إرادة منهم، تتحرك ألسنتهم، فتنطلق بكلمة الإيمان، في نصاعة وبيان: {آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون}.

وإن القلب البشري لعجيب غاية العجب، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلاً.

« وصدق رسول الله ﷺ: ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن . إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه » وهكذا انقلب السحرة المأجورون، مؤمنين من خيار المؤمنين، على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه، لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان في وجه الطاغية من عواقب ونتائج، ولا يعنيهم ماذا يفعل أو ماذا يقول.

ولا بد أن كان لهذا الانقلاب المفاجئ وقع الصاعقة على فرعون وملئه، فالجماهير حاشدة، وقد عبأهم عملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المباراة، عبأوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلي، ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره، ويريد أن يجعل الحكم لقومه؛ وأن السحرة سيغلبونه ويفحمونه.. ثم هاهم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته، ثم يغلبون حتى ليقرون بالغلب؛ ويعترفون بصدق موسى في رسالته من عند الله، ويؤمنون برب العالمين الذي أرسله، ويخلعون عنهم عبادة فرعون، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته، وانتظروا أجره، واستفتحوا بعزته!

وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش، أسطورة الألوهية، أو بنوته للآلهة كما كان شائعاً في بعض العصور وهؤلاء هم السحرة، والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلا كهنة المعابد في طول البلاد وعرضها، ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين، رب موسى وهارون، والجماهير تسير وراء الكهنة في معتقداتهم التي يلهونهم بها، فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة؟ والقوة وحدها بدون عقيدة لا تقيم عرشاً ولا تحمي حكماً.

إن لنا أن نقدر ذعر فرعون لهذه المفاجأة، وذعر الملأ من حوله، إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة؛ وهي إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذي لا يملكون معه إلا أن يلقوا سجداً معترفين منيبين.

لم يقُل الحق سبحانه: فسجد السحرة، إنما: { فَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ } [الشعراء : 46] والإلقاء يدل على سرعة الاستجابة، وأن السجود تَمَّ منهم دون تفكير؛ لأنه أمر فوق إرادتهم، وكأن جلال الموقف وهيبته وروعة ما رَأوْا ألقاهم على الأرض ساجدين لله، صاحب هذه الآية الباهرة؛ لذلك لم يقولوا عندها آمنَّا بربِّ موسى وهارون، إنما قالوا: { قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ العالمين }

وحين نتأمل ردَّ فِعْل السحرة هنا نجد أنهم خرُّوا لله ساجدين أولاً، ثم أعلنوا إيمانهم ثانياً، ومعلوم أن الإيمان يسبق العمل، وأن السجود لا يتأتي إلا بعد إيمان، فكيف ذلك؟

قالوا: هناك فَرْق بين وقوع الإيمان، وبين أنْ تخبر أنت عن الإيمان، فالمتأخر منهم ليس الإيمان بل الإخبار به؛ لأنهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلي معه كل شكٍّ، إيمان خطف ألبابهم وألقاهم على الأرض ساجدين لله، حتى لم يمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه، لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية في النفس البشرية، والمسائل الفطرية لا علاجَ للفكر فيها[1].

وكأن سائلاً سألهم: لِمَ تسجدون؟ قالوا: { آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ }[2].

وقالوا: ربّ موسى وهارون بعد رب العالمين، ليقطعوا الطريق على فرعون وأتباعه أن يقول مثلاً: أنا رب العالمين، هذا الرب الذي كان يتساءل عنه فرعون موسى عليه السلام عند أول لقاء به (وما رب العالمين؟)، فأزالوا هذا اللبْس بقولهم: { رَبِّ موسى وَهَارُونَ }.

---

1 ــ تفسير الشعراوي - (1 / 6542ــ6544).

2 ــ الشعراء:47ــ48.

قالوا: وفي آية أخرى: {قالوا آمنا بربّ هارون وموسى}، قدّموا هارون؛ للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون، حيث كان ربِّى موسى عليه السلام في صغره، فلو قدّموا موسى لربما توهم اللعين وقومه، من أول الأمر، أن مرادهم فرعون، فأزاحوا تلك الخطرة من أول مرة[1].

عندئذ جن جنون فرعون، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال، بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى!

{ قال: آمنتم له قبل أن آذن لكم! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر. فلسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم أجمعين}..

{قال آمنتم له} أي : لموسى، واللام؛ لتضمن الفعل معنى الانقياد والخضوع، أي: أذعنتم له {قبل أن آذن لكم} أي: من غير أن آذن لكم، {آمنتم له قبل أن آذن لكم }.. لم يقل آمنتم به، إنما عده استسلاماً له قبل إذنه، على طريقة المناورات التي يدبرها صاحبها وهو مالك لإرادته، عارف بهدفه، مقدر لعاقبته، ولم يشعر قلبه بتلك اللمسة التي مست قلوبهم، ومتى كان للطغاة قلوب تشعر بمثل هذه اللمسات الوضيئة؟

{قال: آمنتم له} أي: لموسى، واللام؛ لتضمن الفعل معنى الانقياد والخضوع، أي: أذعنتم له {قبل أن آذن لكم} أي: من غير أن آذن لكم، {إنه} أي: موسى {لكبيرُكُم} أي: أستاذكم وأعلمُكم في فنكم، {الذي عَلّمكُمُ السحرَ}، فتواطأتم على ما فعلتم، وهذه منه شبهة واهية؛ أين كان موسى عليه السلام، وأين كان السحرة، حتى علمهم؟ ولكن صدر منه هذا؛ خوفًا على الناس أن يتبعوا موسى عليه السلام، ويقتدوا بالسحرة، فأوهم عليهم، مع ما سبق في علم الله من ضلالتهم.

سارع فرعون في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير: { إنه لكبيركم الذي علمكم السحر } وهي تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة وهم من الكهنة كانوا يتولون تربية موسى في قصر فرعون أيام أن تبناه، أو كان يختلف إليهم في المعابد.

فارتكن فرعون إلى هذه الصلة البعيدة، وقلب الأمر فبدلاً من أن يقول: إنه لتلميذكم قال: إنه لكبيركم، ليزيد الأمر ضخامة وتهويلاً في أعين الجماهير!

ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين:{فلسوف تعلمون. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين}..

إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية، حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة، بلا تحرج من قلب أو ضمير.. وإنها لكلمة فرعون الطاغية المتجبر الذي يملك تنفيذ ما يقول.. فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور![2]

إذن: فهو لا يشك في أن ما رآه السحرة موجب للإيمان، ولا يُشَكّك في ذلك، لكن المسألة كلها { قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}[3] فما يزال حريصاً على ألوهيته وجبروته ، حتى بعد أن كُشِف أمره وظهر كذبه، وآمن الملأ بالإله الحق.

ثم أراد أنْ يبرر موقفه بين دهماء العامة حتى لا يقول أحد: إنه هزم وضاعت هيبته، فقال: { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر}، في حين أن القوم يعلمون أن موسى عليه السلام لم يجلس طيلة عمره إلى ساحر، لكن فرعون يأخذها ذريعة، لينقذ ما يمكن إنقاذه من مركزه الذي تهدّم، وألوهيته التي ضاعت.

ثم يُهدِّدهم بأسلوب ينمّ عن اضطرابه، وأنه فقد توازنه، اختلّ حتى في تعبيره، حيث يقول { فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ }، وسوف تدل على المستقبل مع أنه لم يُؤخّر تهديده لهم بدليل أنه قال بعدها: { لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ }، { مِّنْ خِلاَفٍ }، يعني: اليد اليمنى مع الرِّجْل اليُسْرى، أو اليد اليسرى مع الرِّجْل اليمنى.

---

1 ــ إرشاد العقل السليم، أبي السعود،28/6، والبحر المديد، ابن عجيبة، 224/4.

2 ــ البحر المديد، 422/4.

3 ــ الشعراء: 49.

وقوله: { وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ }، أوضحه في آية أخرى: { وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل }[1].

{ قالوا: لا ضير. إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين}..

فما كان جواب المؤمنين برب العالمين؟ { قَالُواْ لاَ ضَيْرَ }

إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان، القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان، القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير:

لا ضير.. لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف.. لا ضير في التصليب والعذاب.. لا ضير في الموت والاستشهاد.. لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون.. وليكن في هذه الأرض ما يكون: فالمطمع الذي نتعلق به ونرجوه {أن يغفر لنا ربنا خطايانا } جزاء { أن كنا أول المؤمنين}.. وأن كنا نحن السابقين..

يا لله! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر.. وإذ يفيض على الأرواح.. وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس.. وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين.. وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.

هنا يسدل السياق الستار على هذه الروعة الغامرة.. لا يزيد شيئاً، ليبقى للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق.. وهو يربي به النفوس في مكة وهي تواجه الأذى والكرب والضيق، ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب[2].

{ قَالُواْ لاَ ضَيْرَ }: لا ضررَ علينا إنْ قتلتنا؛ لأن مصير الجميع إلى الموت، لكن إنْ كانت نهايتنا على يديك فوسف نسعد نحن بلقاء ربنا، وتَشْقى أنت بجزاء ربك، كالطاغية الذي قال لعدوه: لأقتلنك فضحك، فقال له: أتسخر مني وتضحك؟ قال: كيف لا أضحك من أمر تفعله بي يُسعدني الله به، وتشقى به أنت؟

إذن: لا ضررَ علينا إنْ قُتِلْنا؛ لأننا سنرجع إلى الله ربنا، وسنخرج من ألوهية باطلة إلى لقاء الألوهية الحقة، فكأنك فعلتَ فينا جميلاً، وأسديتَ لنا معروفاً إذْ أسرعتَ بنا إلى هذا اللقاء، وما تظنه في حقنا شَرٌّ هو عين الخير، لذلك فَهِم الشاعر هذا المعنى، فقال عنه:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلى أَيِّ جَنْبٍ كانَ في اللهِ مَصْرَعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك في أوصال شِلو ممزع

يعني: ما دُمْتُ قد مُتُّ في سبيل الإسلام، فلا يُهم بعد ذلك، ولا أبالي أيّ موتة هي.

والمؤمنون هنا حريصون على أمرين: الأول ــ نَفْي الضرر؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصحلة، والثاني: التأكيد على النفع الذي سينالونه من هذا القتل.

ثم يقول الحق سبحانه: { إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ }: لأنك أكرهتنا على السحر، وحمّلْتنا على الكذب، ومكثنا عمراً نعتقد أنك إله، فلعلَّ مبادرتنا إلى الإيمان وكوْننا أولَ المؤمنين يشفع لنا عند ربنا، فيغفر لنا خطايانا، وفي موضع آخر: {إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر}[3].

فذكر هناك مسألة الإكراه، وذكر هنا العلة[4]: { أَن كُنَّآ أَوَّلَ المؤمنين }[5].

و{ما أكرهتنا عليه من السحر}: الذي عملناه في معارضة موسى عليه السلام، بإكراهك وحشرك لنا من المدائن القاصية، وخصوه بالذكر، مع اندراجه في خطاياهم؛ إظهارًا لغاية نفرتهم عنه، ورغبة في مغفرته، وفي ذكره الإكراه: نوع اعتذار؛ لاستجلاب المغفرة، وقيل: أرادوا الإكراه على تعلم السحر، لما رُوي أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين؛ اثنان منهم من القبط، والباقي من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر، وقيل: إنه أكرههم على المعارضة، حيث رُوي أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائمًا، ففعل، فوجدوه تحرسه

---

1 ــ طه:71.

2 ــ في ظلال القرآن، 348/5.

3 ــ طه: 73.

4 ــ تفسير الشعراوي - (1 / 6546ــ6547)

5 ــ الشعراء:51.

عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، فإن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه، لكن يأباه تصديهم للمعارضة بالرغبة والنشاط، كما يُعرب عنه قولهم: {إِنَّ لَنَا لأَجْراً...}[1] الخ، وقولهم: {بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ}[2].

قالوا: لم يثبت في القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به، ولم يثبت في الأخبار، لكن رُوي عن ابن عباس، وغيره، أنه أنفذه،ورُوي أن امرأة فرعون كانت تسأل: من غلب؟ فيقال لها: موسى، فقالت: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون يُهددها، وقال: انظروا أعظم صخرة، فإن استقرت على قولها فألقوها عليها، فلما ألقوها رفعت بصرها إلى السماء فأريت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزعت روحها منها، وألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه[3].

المشهد الإخير

فأما بعد ذلك فالله يتولى عباده المؤمنين، وهاهو فرعون يتآمر ويجمع جنوده أجمعين:

{وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون.. فأرسل فرعون في المدائن حاشرين.. إن هؤلاء لشرذمة قليلون.. وإنهم لنا لغائظون.. وإنا لجميع حاذرون}..

وهنا فجوة في الوقائع والزمن لا تذكر في هذا الموضع.. فقد عاش موسى وبنو إسرائيل فترة بعد المباراة، وقعت فيها الآيات الأخرى المذكورة في سورة الأعراف قبل أن يوحي الله لموسى بالرحيل بقومه.. ولكن السياق هنا يطويها ليصل إلى النهاية المناسبة لموضوع السورة واتجاهها الأصيل.

لقد أوحى الله إلى موسى إذن أن يسري بعباده، وأن يرحل بهم ليلاً، بعد تدبير وتنظيم، ونبأه أن فرعون سيتبعهم بجنده؛ وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر: وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات.

وعلم فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة، فأمر بما يسمى: (التعبئة العامة) وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجنود، ليدرك موسى وقومه؛ ويفسد عليهم تدبيرهم؛ وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير!

و{ حَاشِرِينَ }، من الحشر أي: الجمع، لكن جمع هذه المرة للجنود لا للسحرة، لأنهم هُزِموا في مُباراة السحرة، فأرادوا أنْ يستخدموا سلاحاً آخر هو سلاح الجبروت والتسلُّط والحرب العسكرية، فإنْ فشلت الأولى فلعلّ الأخرى تفلح، لكن الحق تبارك وتعالى أخبر نبيه موسى بما يُدبِّر له وأمره بالخروج ببني إسرائيل.

وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند.. ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون، وبقوة موسى ومن معه وعظم خطرهم، حتى ليحتاج الملك الإله بزعمه! إلى التعبئة العامة.. ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين:

قال فرعون: إن بني إسرائيل الذين فرُّوا مع موسى لَطائفة حقيرة قليلة العدد، وإنهم لمالئون صدورنا غيظًا؛ حيث خالفوا ديننا، وخرجوا بغير إذننا، وإنا لجميع متيقظون مستعدون لهم[4].

قال الزمخشري: أنهم لقلتهم لا نبالي بهم ولا نتوقع غلبتهم وعلوهم علينا، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغضبنا وتغيظنا وتضيق صدورنا، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج، سارعنا إلى حسم فساده[5].

وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن، لئلا يظنّ به ما يكسر من قهره وسلطانه.

قرأه الجمهور بدون ألف بعد الحاء فهو جمع حَذِر وهو من أمثلة المبالغة عند سيبويه والمحققين، وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر وخلف بألف بعد الحاء جمع (حَاذر) بصيغة اسم الفاعل، والمعنى : أن الحَذَر من شيمته وعادته فكذلك يجب أن تكون الأمة

---

1 ــ الأعراف:113.

2 ــ الشعراء:44.

3 ــ الكشاف، الزمخشري، 576/4، تفسير العز بن عبد السلام، 665/1، البحر المديد، 4 / 423.

4 ــ التفسير الميسر ــ 370/6.

5 ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – (3 / 320).

معه في ذلك ، أي إنا من عادتنا التيقظ للحوادث والحَذرُ مما عسى أن يكون لها من سيّيء العواقب، فالحذر: اليقظ، والحاذر: الذي يجدد حذره.[1]

{إن هؤلاء لشرذمة قليلون}! ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم، والاحتشاد لهم، وهم شرذمة قليلون!{وإنهم لنا لغائظون}.. فهم يأتون من الأفعال والأقوال ما يغيظ ويغضب ويثير!

وإذن فلهم شأن وخطر على كل حال! فليقل العملاء: إن هذا لا يهم فنحن لهم بالمرصاد: {وإنا لجميع حاذرون}..

مستيقظون لمكائدهم، محتاطون لأمرهم، ممسكون بزمام الأمور!

إنها حيرة الباطل المتجبر دائماً في مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين!

وقَول فرعون عن أتباع موسى: {إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ}[2]، يريد أن يُهوِّن من شأنهم ويُغري قومه بهم، ويُشجِّعهم على مواجهتهم، لكن مع ذلك يُحذِّرهم من خطرهم، فيقول { وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ }[3]. فأَعِدُّوا لهم العدة، ولا تستهينوا بأمرهم.

يعني: لا بُدَّ أن نأخذ حذرنا ونحتاط للأمر.

وقبل أن يعرض المشهد الأخير، يعجل السياق بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وملئه مما كانوا فيه من متاع. ووراثة بني إسرائيل المستضعفين.

{فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك ، وأورثناها بني إسرائيل}..

لقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ويقفون أثرهم.. فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة.. وكانت إخراجاً لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم؛ فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم! لذلك يذكر هذا المصير الأخير عقب خروجهم يقفون أثر المؤمنين.. تعجيلاً بالجزاء على الظلم والبطر والبغي الوخيم.

أي: لم ينفعه احتياطه، ولم يُجْدِ حذره، فلا يمنع حَذَر من قَدَر {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ }[4] أي: بساتين وحدائق { وَعُيُونٍ } أي: عيون تجري بالماء { وَكُنُوزٍ } كانت عندهم {وَمَقَامٍ كَرِيمٍ }[5] يعني: عيشة مُتْرفة في سَعَةٍ ورَغَدٍ من الحياة، وخدَم وحَشَم، {وأورثناها بني إسرائيل}..

ولا يعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة؛ وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه، لذلك يقول المفسرون: إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه.. فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم.

وبعد هذا الاعتراض يجيء المشهد الحاسم الأخير:

{فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون. قال : كلا إن معي ربي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق. فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين.}..

لقد أسرى موسى بعباد الله، بوحي من الله وتدبير.. فأتبعهم جنود فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبطر..

أي: عند الشروق، وعادةً ما تكون الغارة على الجيش عند الصباح، وعادةً ما يقوم الإنسان من النوم كسولاً غير نشيط، فكيف بمَنْ هذه حاله إن التقى بعدوه؟

ثم ها هو ذا المشهد يقترب من نهايته.. والمعركة تصل إلى ذروتها.. إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين ولا هم يملكون خوضه وما هم بمسلحين.. وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون!

---

1 ــ قال ابن عاشور في تفسيره، 19 / 131ــ 132: وهذا أصل عظيم من أصول السياسة وهو سدّ ذرائع الفساد ولو كان احتمالُ إفضائها إلى الفساد ضعيفاً ، فالذرائع الملغاة في التشريع في حقوق الخصوص غير ملغاة في سياسة العموم ، ولذلك يقول علماء الشريعة : إن= =نظر ولاة الأمور في مصالح الأمة أوسع من نظر القضاة ، فالحذر أوسع من حفظ الحقوق وهو الخوف، من وقوع شيء ضار يمكن وقوعه ، والترصدُ لِمنع وقوعه).

2 ــ الشعراء: 54.

3 ــ الشعراء:55.

4 ــ الشعراء:57.

5 ــ الشعراء:58.

معنى: { تراءا الجمعان }[1] أي: صار كل منهما يرى الآخر، وحدثتْ بينهما المواجهة،

وقالت دلائل الحال كلها: أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم: وبلغ الكرب مداه، وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين!

وعندها { قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ }، فالحال أن البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم، فلا مناصَ ولا مهرب.. ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون.

لكن موسى عليه السلام وقد سبق أن تعلم كلمة (كلا) من ربه تعالى، حينما قال: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ}[2]، فردّ عليه ربه: {كَلاَّ} عندها تعلَّمها موسى، وعرف كيف ومتى يقوله قَوْلَةَ الواثق بها، لكن كيف يقول موسى عليه السلام هذه الكلمة (كلا).بملء فِيهِ، والأمر بقانون الماديات أنه عُرْضة لأنْ يُدْرَك قبل أن يكملها؟

والإجابة في بقية الآية: { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ }[3] أي: سيكفين[4]، فلم يقُلْ موسى: كَلاّ اعتماداً على قوته واحتياطه للأمر، إنما قالها اعتماداً على ربه الذي يكلؤه بعينه، ويحرسه بعنايته.

فالواقع أنني لا أعرف ماذا أفعل، ولا كيف أتصرف، لكن الشيء الذي أثق منه { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } لذلك يأتي الفرج والخلاص من هذا المأزق مباشرة: {فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى}

ذلك لأن البحر هو عائقهم من أمامهم، والبحر مياه لها قانونها الخاص من الاستطراق والسيولة، فلما ضرب موسى بعصاه البحر انفلق وانحصر الماء على الجانبين، كل فِرْقٍ أي: كل جانب كالطودْ يعني الجبل العظيم.

لكن بعد أن صار الماء إلى ضِدِّه وتجمّد كالجبل، وصنع بين الجبلين طريقاً، أليس في قاع البحر بعد انحسار الماء طين ورواسب وأوحال وطمي يغوص فيها الإنسان؟.

إننا نشاهد الإنسان لا يكاد يستطيع أن ينقل قدماً إذا سار في وحل إلى ركبتيه مثلاً، فما بالك بوحْل البحر؟

لذلك قال له ربه: { لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى }[5]، فالذي جعل الماء جبلاً، سيجعل لك الطريق يابساً.

والحق تبارك وتعالى لم يُبيِّن لنا في انفلاق البحر، إلى كَمْ فلقة انفلق، لكن العلماء يقولون: إنه انفلق إلى اثنتي عشرة فلقة بعدد الأسباط، بحيث يمر كل سَبْط من طريق.

فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقا قال: ألا ترون إلى البحر منفلقا، قد فرق مني فانفتح لي حتى أدرك أعدائي فاقتلهم.[6].

وفي لقطة أخرى من القصة أراد موسى عليه السلام أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى طبيعته، فيسُدُّ الطريق في وجه فرعون وجنوده على حَدِّ تفكيره كبشر، لكن الحق تبارك وتعالى نهاه عن ذلك: { فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ }[7].

اتركه على حاله ليُغري الطريق اليابس فرعون وجنوده، لذلك قال سبحانه: { وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين }

أي: قرّبناهم من منتصف البحر، ثم أطبقه الله عليهم حين أمر الماء أن يعود إلى سيولته وقانون استطراقه، وهكذا يُنجِّي الله ويُهلِك بالشيء الواحد و{ الآخرين }[8] يعني: قوم فرعون ، و { ثَمَّ } أي: هناك وسط البحر.

---

1 ــ الشعراء:61.

2 ــ الشعراء:14.

3 ــ الشعراء:62.

4 ــ الدر المنثور، السيوطي،293/6.

5 ــ طه:77.

6 ــ الدر المنثور - (6 / 295).

7 ــ الدخان:23ــ24.

8 ــ الشعراء:64.

هذه مهمة العصا عند موسى عليه السلام فهي حُجّته وآية من الآيات التي أعطاه الله، فبها انتصر في معركة الحجة مع السَّحَرة، وبها انتصر في معركة السلاح حين ضرب بها البحر فانفلق.

فقد حُسمتْ هذه المعركة لصالح موسى ومَنْ معه دون إراقة دماء، ودون خسارة جندي واحد، في حين أن المعارك على فرض الانتصار فيها لا بُدَّ أن تكون لها نسبة خسائر في الأرواح وفي العَتَاد، أما هذه فلا.

أي: بنفس السبب الذي أنجى الله به موسى وقومَه أهلك فرعون وقومه؛ لأنه وحده سبحانه القادر على أن يُنجِي، وأنْ يُهلِك بالشيء الواحد.

قوله سبحانه { إِنَّ فِي ذَلِكَ }[1]، أي: فيما حدث { لآيَةً }، وهي الأمر العجيب الذي يخرج عن المألوف وعن العادة، فيثير إعجاب الناس، ويستوجب الالتفات إليه والنظر فيه، والآية تُقنِع العقل بأن الله هو مُجْريها على يَدَيْ موسى، وتدل على صِدْق رسالته وبلاغة عن الله، وإلا فهي مسألة فوق طاقة البشر.

ومع ذلك { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ }، أي: أن المحصلة النهائية للذين آمنوا كانوا هم القلة مع هذه الآيات، حتى الذين آمنوا مع موسى عليه السلام واتبعوه وأنجاهم الله من آل فرعون ومن الغرق، سرعان ما تراجعوا وانتكسوا، كما يحكي القرآن عنهم: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ البحر فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ ياموسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}[2]، سبحان الله، لقد كفروا بالله، وما تزال أقدامهم مُبتلَّة من عبور البحر، وما زالوا في نَشوة النصر وفرحة الغلبة!!

أي: بعد ما مرّ من حيثيات فإن الله تعالى هو العزيز، أي: الذي لا يُغلَب ولا يُقهَر، إنماهو الغالب وهو القاهر، فهو سبحانه يغلِب ولا يُغلب، ويُطعِم ولا يُطعَم، ويُجير ولا يُجار عليه.. ومع عِزته سبحانه وقوته بحيث يغلب ولا يُغلب هو أيضاً { الرحيم }، لأنه رب الخَلْق أجمعين، يرحمهم إنْ تابوا، ويقبلُهم إنْ رجعوا إلى ساحته، كما جاء في الحديث الشريف: « لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح ».

جاءت هذه الآية بعد الانتهاء في إيجاز مُبسّط لقصة موسى عليه السلام مع فرعون[3]، وخُتمت بقوله تعالى: { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم }.

مضت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه؛ وانتهت بتلك النهاية، وفيها البشرى للمؤمنين المستضعفين المضطهدين كما كانت القلة المؤمنة يومذاك في مكة وفيه الدمار للظالمين المتجبرين الذين يشبه موقفهم موقف المشركين[4].

أهم المراجع:

1ــ تفسير في ظلال القرآن، سيد قطب، (5 / 339 ــ 350).

2ــ وتفسير الشعراوي، (1 / 6508ــ6557).

3ــ البحر المديد، ابن عجيبة، (4 /422ــ 423).

4ــ والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (19/ 105).

5ــ تفسير الخازن – (5/ 115). 6ــ تفسير العز بن عبد السلام.

المحاضرة (05)

1 ــ الشعراء: 67.

2 ــ الأعراف:138.

3 ــ تفسير الشعراوي – (1 / 6550ــ 6562).

4 ــ في ظلال القرآن، 350/5.

القضاء والقدر في القرآن الكريم دراسة موضوعية[1]

تعريف القضاء لغة: القضاء في اللغة مصدر الفعل قضى يقضي قضاءً.

قال ابن فارس في مادة (قضى): القاف، والضاد، والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر، وإتقانه، وإنفاذه لجهته.

قال الله تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: 12]؛ أي: أحكم خلقهن، ثم قال أبو ذؤيب الهذلي:

وعليهما مسرودتان قضاهما

داود أو نَسَجُ السوابغ تُبَّعُ[2]

والقضاء: هو الحكم، والصنع، والحتم، والبيان.

وأصله القطع، والفصل، وقضاء الشيء، وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه؛ فيكون بمعنى الخلق[3].

إطلاقات القضاء في القرآن الكريم:

يطلق لفظ القضاء في القرآن إطلاقات عديدة؛ منها[4]:

أ - **الوصية والأمر:** قال الله تعالى :﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أمر وأوصى.

ب - **الإخبار:** قال تعالى :﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ [الإسراء: 4.]

ج - الفراغ: قال تعالى :﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ [البقرة: 200]، وقال – سبحانه :- ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ [النساء: 103.]

د - **الفعل:** قال تعالى :﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ [طه: 72.]

هـ - **الوجوب والحتم:** قال تعالى :﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [البقرة: 210]، وقال تعالى :﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: 41.]

و - **الكتابة:** قال تعالى :﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ [مريم: 21.]

ز - **الإتمام:** قال تعالى :﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ [القصص: 29]، وقال تعالى :﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ ﴾ [القصص: 28.]

ح - **الفصل:** قال تعالى :﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [الزمر: 69.]

ط - **الخلق:** قال تعالى :﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [فصلت: 12.]

ي - **القتل:** قال تعالى :﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ القصص: 15.

القدر:

تعريف القدر لغة: مصدر الفعل قَدِرَ يقْدر قدَرًا، وقد تسكن دالُه[5].

---

1 ــ التعريفات باختصار من كتاب – القصيدة التائية في القدر لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / دراسة وتحقيق وشرح: الباحث محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد. نسخة الكترونية: www.toislam.net.

2 ــ معجم مقاييس اللغة لابن فارس 99/5.

3 ــ انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ص441–442، وانظر المفردات لغريب القرآن للراغب الأصفهاني ص423، وانظر لسان العرب لابن منظور 186/15، والقاموس للفيروزأبادي ص1708.

4 ــ انظر ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، لأبي عمر محمد ابن عبد الواحد البغدادي، المعروف بغلاب ثعلب، تحقيق: د/ محمد ابن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط: 1، 1423هـ، 2002م، ص: 253 ــ ص: 306، ص: 576، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص: 441 ــ 442، ومعجم مقاييس اللغة، 99/5..

5 ــ النهاية في غريب الحديث؛ لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزواوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 22/4.

قال ابن فارس في مادة (قدر): قدر: القاف، والدال، والراء، أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنه، ونهايته؛ فالقدْر مبلغ كل شيء، يقال: قَدْرُه كذا أي مبلغه، وكذلك القدَرُ، وقدَرْت الشيء أقدِره وأقدُره من التقدير[1].

والقدَر محركة :القضاء، والحكم، وهو ما يقدِّره الله عز وجل من القضاء، ويحكم به من الأمور.

والتقدير: التروية، والتفكير في التسوية أمر، والقَدَرُ كالقَدْر وجميعها جمعها: أقدار[2].

إطلاقات القدر في القرآن الكريم:

يطلق القدر في القرآن عدة إطلاقات منها:

أ – **التضييق:** قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ الفجر: 16.

ب – **التعظيم** قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الأنعام: 91 .

ج – **الاستطاعة**، والتغلب، والتمكن: قال تعالى :﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ المائدة: 34.

د – **التدبير** قال تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾]المرسلات: 23]؛ أي: دبَّرنا الأمور، أو أردنا وقوعها بحسب تدبيرنا.

هـ – **تحديد المقدار**، أو الزمان، أو المكان: قال تعالى :﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾]سبأ: 18]، وقال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾]فصلت: 10.[

و – **الإرادة :** قال تعالى} : ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾]القمر: 12]؛ أي: دبِّر، وأريد وقوعه.

ز – **القضاء والإحكام**: قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾]الواقعة: 60.[

أي: قضينا، وحكمنا.

ح– **التمهل والتَّروي في الإنجاز** : قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾]المدثر: 18]؛ أي: تمهَّل، وتروَّى؛ ليتبين ما يقوله في القرآن.

وقال تعالى : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾]سبأ: 11]؛ أي: تمهلْ، وتروَّ في السرد؛ كي تحكمه.

ط – **الصنع بمقادير معينة**[3]: قال تعالى: ﴿ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾، الإنسان: 16 .

العلاقة بين القضاء والقدر، وتعريفهما في الاصطلاح:

العلاقة بين القضاء والقدر:

من خلال ما سبق من تعريف القضاء والقدر في اللغة وبيان إطلاقاتهما في القرآن يتبين مدى العلاقةِ بينهما .

فمعاني القضاء تؤول إلى إحكام الشيء، وإتقانه، ونحو ذلك من معاني القضاء .

ومعاني القدر تدور حول ذلك، وتعود إلى التقدير[4]، والحكم، والخلق، والحتم، ونحو ذلك.

القضاء والقدر في الاصطلاح الشرعي:

قال علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالشريف (740هـ – 816هـ)، القدر: خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحدًا بعد واحد مطابقًا للقضاء، والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال[5].

---

1 ــ معجم مقاييس اللغة 62/5، وانظر ياقوتة الصراط ص576، والنهاية 23/4.

2 ــ انظر لسان العرب 72/5، والقاموس المحيط، للفيروز ابادي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1407هـ، ص591.

3 ــ انظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز ابادي، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العلمية بيروت، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة (ب ت) 243/4– 245، وياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن ص576، والمفردات في غريب القرآن ص410– 413، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية ص495– 496.

4 ــ قلت: هذا بيان للفرق بين (القدير والقدرة والتقدير وقدّر) فالقدير اسم لله تعالى، والقدرة صفة له سبحانه وتعالى وهي صفة ذاتية (معنوية) وهي ملازمة للذات، لا تنفك عنها، والتقدير فصفة فعل لله تعالى، والصفات الفعلية صفة متعلقة بمشيئته سبحانه، أما قدّر ففعله سبحانه وتعالى والفعل متعلق بالمشيئة وبزمن.

5 ــ التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، 1416هـ – 1955م، ص174.

وقال في تعريف القضاء: القضاء لغة: الحكم.

وفي الاصطلاح: عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد[1].

وقال الدكتور عبدالرحمن المحمود: القضاء والقدر هو تقدير الله تعالى للأشياء في القِدَم، وعلمه – سبحانه – أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدرها وخلقه له.[2]

وخلاصة القول: أن التعريف يجب أن يشمل مراتب القضاء والقدر (وهي المراحل التي يمر بها المخلوق من كونه معلومة في علم التقدير الى أن يكون مخلوقا واقعا بقدرة القدير ومشيئته[3] ، التي من لم يؤمن بها لم يؤمن ـــ بالقضاء والقدر، وهي أربع مراتب:

المرتبة الأولى: علم الرب – سبحانه – بالأشياء قبل كونها.

المرتبة الثانية: كتابته لها قبل كونها .

المرتبة الثالثة: مشيئته لها .

الرابعة: خلقه لها.[4]

الفرق بين القضاء والقدر:

قال الجرجاني: والفرق بين القدر والقضاء هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها[5] .

وقال الحافظ العسقلاني في الفتح كتاب الدعوات: (القضاء الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل)[6].

وقال أيضًا في الفتح كتاب القدر: وقالوا – أي العلماء –: (القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله، وقال أبو المظفر بن السمعاني: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العي ولا ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى، اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا مَلَك مقرب، وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف لهم قبل دخولها انتهى)[7].

---

1 ـــ الأزل: هو الشيء الذي لا بداية له، والأبد: هو الشيء الذي لا نهاية له، أو يقال: الأزل: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية من جانب الماضي، والأبد: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية من جانب المستقبل. انظر التعريفات للجرجاني، ص:7. وانظر: التعريفات؛ للجرجاني ص177.

2 ـــ القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه/ الدكتور عبد الرحمن المحمود، الناشر دار الوطن، الطبعة الثانية، 1418هـ – 1997م، ص39. باختصار من كتاب – القصيدة التائية في القدر لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / دراسة وتحقيق وشرح: الباحث محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد. نسخة الكترونية: www.toislam.net. وأنظر غير مأمور مصطلحات في كتب العقائد – دراسة وتحليل، الباحث محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، 1426هـ. ص 169 – 176.

3 ـــ دورة منة القدير في توحيد الربوبية ومسائل القضاء والقدر والحكمة والتدبير بميت الرخا – غربية – مصر، المحاضرة الثامنة، عنوان المحاضرة: (المرتبة الأولى من مراتب القدر العلم) / الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني، وكتاب منة القدير لفضيلته، ص 303.

موقع الرضوانية دار العقيدة المصرية www.alridwany.com.

4 ـــ وأنظر غير مأمور شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل / العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، الناشر دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة 1398هـ/1978م. ص29.

5 ـــ التعريفات ص174.

6 ـــ فتح الباري شرح صحيح البخاري / الحافظ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي – الناشر دار المعرفة – بيروت، 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز،149/11.

7 ـــ فتح الباري شرح صحيح ، 149/11.

وقال العيني في العمدة) : فَإِن قلت: مَا الْفرق بَين الْقَضَاء وَالْقدر؟ قلت: الْقَضَاء عبارَة عَن الْأَمر الْكُلِّي الإجمالي الَّذِي حكم الله بِهِ فِي الْأَزَل، وَالْقدر عبارَة عَن جزئيات ذَلِك الْكُلِّي ومفصلات ذَلِك الْمُجْمل الَّتِي حكم الله بوقوعها وَاحِدًا بعد وَاحِد فِي الْإِنْزَال، قَالُوا[1]: وَهُوَ الْمُرَاد بقوله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾، الحجر: 21.[20]

وخلاصة القول، فالفروقات بين القضاء والقدر هي:

1 - القضاء ثلاث مراتب والقدر أربع، فالقضاء علم وكتابة ومشيئة، أما القدر فعلم وكتابة ومشيئة وخلق .

2 - القضاء غيب ويكون مشهودًا بالقدرة عند وقوع القدر .

3 - القضاء يسبق القدر، ويشترك معه في علم التقدير، فكلاهما يتفقان في العلم والكتابة والمشيئة، ويزيد القدر مرتبة الخلق والتنفيذ، ولذلك نقول: قضاء وقدر، ولا نقول قدر وقضاء، فالقضاء سابق والقدر لاحق .

4 - القضاء أعم من حيث التعلق والقدر أخص، فالقضاء يتعلق بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، أما القدر من جانب القدرة والخلق والتكوين، فيتعلق بما كان، وما هو كائن، أو بم تم ويتم خلقه وتنفيذه، أما من جهة المراتب، فالقدر أعم؛ لأنه أربع مراتب، والقضاءأخص؛ لأنه ثلاث مراتب[2].

الأدلة العامة من القرآن الكريم على وجوب الإيمان بالقدر

الأدلة العامة من القرآن الكريم على وجوب الإيمان بالقدر: وردت في كتاب الله تعالى آيات تدل على أن الأمور تجري بقدر الله تعالى وعلى أن الله تعالى علم الأشياء وقدرها في الأزل، وأنها ستقع على وفق ما قدرها الله سبحانه وتعالى ومن هذه الآيات:

1 ــ قوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)، القمر: 49...

2 – وقوله تعالى: (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا)، الأحزاب:38، أي قضاء مقضياً، وحكماً مبتوتاً، وهو كظل ظليل، وليل أليل، وروض أريض في قصد التأكيد)[3].

3 – وقوله تعالى عن موسى عليه السلام: (فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)، طه: 40، أي: أنه جاء موافقاً لقدر الله تعالى وإرادته على غير ميعاد[4].

4 – وقوله تعالى: (فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ)، المرسلات: 21–23. أي: جعلنا الماء في مقر يتمكن فيه وهو الرحم مؤجلاً إلى قدر معلوم قد علمه الله سبحانه وحكم به، فقدرنا على ذلك فنعم القادرون نحن، أو: فقدرنا ذلك تقديراً فنعم المقدرون له نحن – على قراءتين–[5] والقراءة الثانية (قدّرنا) بالتشديد توافق قوله تعالى: (مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ)، عبس:19.

فهذه الآيات تفيد الإخبار عن قدر الله الشامل لكل شيء، وأخبار القرآن مقطوع بها[6].

المحاضرة (06)

كلمة التوحيد في القرآن الكريم دراسة موضوعية

---

1 ــ عمدة القاري شرح صحيح البخاري / أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: 855هـــ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، 258/21 – 259.

2 ــ باختصار وتصرف، من كتاب سهل في التوحيد والعقيدة للدكتور الرضواني، مكتبة سلسبيل.ص236 – 237. موقع دار العقيدة المصرية. وانظر غير مأمور كتاب منة القدير ومحاضرات منة القدير للدكتور الرضواني وتجدها في موقع الرضوانية دار العقيدة المصرية www.alridwany.com.

3 ــ فتح البيان في مقاصد القرآن، تفسير صديق حسن، 7/ 375

4 ــ انظر تفسير ابن كثير 287/5.

5 ــ انظر تفسير القرآن الجليل لنسفي 308/5، وفتح البيان ، 190/10ــ 191، والنظر بالنسبة للقراءات وتوجيهها في الآية حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن نجلة ص: 743 ــ 744. تحقيق سعيد الأفغاني.

6 ــ القضاء والقدر لعبد الرحمن بن صالح المحمود بتصرف ص: 39.

كم مرة ورد لفظ التوحيد (لا إله إلا الله) في القرآن الكريم؟

ورد لفظ التوحيد 35 مرة.

ورد 29 مرة بلفظ لا إله إلا هو:

1 ــ (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ)، البقرة: 163

2 ــ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)، البقرة:255

3 ــ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، آل عمران آية : 2

4 ــ (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، آل عمران آية : 6 .

5- (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، آل عمران: 18

6- (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)، النساء آية : 87

7- (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)، الأنعام آية : 102

8- (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)، الأنعام آية : 106

9- (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)، الأعراف آية : 158

10- (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)، التوبة آية : 31

11- (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، التوبة آية : 129

12- (فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)، هود آية : 14

13- (كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)، الرعد آية : 30

14- (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ)، طه آية : 8

15- (إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)، طه آية : 98

16- (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)، المؤمنون آية : 116

17- النمل آية : 26

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

18- القصص آية : 70، (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

19- القصص آية : 88 (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

20- فاطر آية : 3، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ).

21- الزمر آية : 6، (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ).

22- غافر آية : 3، (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ).

23- غافر آية : 62، (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ).

24- غافر آية : 65، (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

25- الدخان آية : 8، (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ).

26- الحشر آية : 22، (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ).

27- الحشر آية : 23، (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ).

28- التغابن آية : 13، (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

29- المزمل آية : 9، (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)

ورد ثلاث مرات بلفظ لا إله إلا أنا:

1- النحل آية : 2، (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ).

2- طه آية : 14، (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي).

3- الأنبياء آية : 25، (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

ورد مرتان بلفظ لا إله إلا الله:

1 ــ قال تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)، الصافات: 35.

2 ــ قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)، محمد: 19.

ورد مرة واحدة بلفظ لا إله إلا أنت:

1 ــ قال تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، الأنبياء: 87.

أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية

هذه فوائد من كتاب الإرشاد الى صحيح الاعتقاد للإمام صالح الفوزان، وذلك لما رأيت من قلة الكتابات عن الشرك وخطورته وهي دعوة الرسل والأنبياء فلا يقيم دين ولا عبادة إلا بالتوحيد.

أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية:

لما كان توحيد الربوبية قد أقر به الناس بموجب فطرهم ونظرهم في الكون، وكان الإقرار به وحده لا يكفي للإيمان بالله ولا ينجي صاحبه من العذاب؛ ركزت دعوات الرسل على توحيد الإلهية، خصوصا دعوة خاتم الرسل نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام؛ فكان يطالب الناس بقول لا إله إلا الله، المتضمنة لعبادة الله وترك عبادة ما سواه، فكانوا ينفرون منه، ويقولون: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، ص: 5، وحاولوا مع الرسول أن يترك هذه الدعوة، ويخلي بينهم وبين عبادة الأصنام، وبذلوا في ذلك معه كل الوسائل؛ بالترغيب تارة، وبالترهيب تارة، وهو عليه الصلاة والسلام يقول: "والله؛ لو وضعوا الشمس بيميني، والقمر بشمالي، على أن أترك هذا الأمر؛ لا أتركه، حتى يظهره الله أو أهلك دونه"، وكانت آيات الله تتنزل عليه بالدعوة إلى هذا التوحيد، والرد على شبهات المشركين، وإقامة البراهين على بطلان ما هم عليه.

وقد تنوعت أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية، وها نحن نذكر جملة منها؛ فمن ذلك:

1 – أمره – سبحانه – بعبادته وترك عبادة ما سواه؛ كما في قوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً}، النساء: 36، وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...} إلى قوله: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، البقرة: 21 – 22.

2 – ومنها: إخباره – سبحانه – أنه خلق الخلق لعبادته؛ كما في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ}، الذاريات: 56.

3 – ومنها: إخباره أرسل جميع الرسل بالدعوة إلى عبادته والنهي عن عبادة ما سواه؛ كقوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، النحل: 36.

4 – ومنها: الاستدلال على توحيد الإلهية بانفراده بالربوبية والخلق والتدبير؛ كما في قوله – سبحانه –: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...}، البقرة: 21، وقوله: {لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ}، فصلت: 37، وقوله: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ}، النحل: 17.

5 – ومنها الاستدلال على وجوب عبادته – سبحانه – بانفراده بصفات الكمال وانتفاء ذلك عن آلهة المشركين؛ كما في قوله تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}، مريم: 65، وقوله: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}، الأعراف: 148، وقوله عن خليله إبراهيم عليه السلام؛ أنه قال لأبيه: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً}، مريم: 42، وقوله: {إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ}، فاطر: 14، وقوله: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً}، الأعراف: 148.

6 – ومنها تعجيزه لآلهة المشركين؛ كقوله تعالى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ}، الأعراف: 191 – 192، وقوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً}، الإسراء: 56، وقوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ}، النحل 73، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}، الحج: 73.

7 – ومنها: تسفيه المشركين الذين يعبدون غير الله؛ كقوله تعالى: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}، الأنبياء: 66 – 67، وقوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}، الأحقاف: 5.

8– ومنها: بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع من عبدوهم؛ حيث تتبرأ منهم تلك المعبودات في أحرج المواقف؛ كما في قوله تعالى: {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} البقرة: 165، وقوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} فاطر: 14، وقوله: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} الأحقاف: 5 – 6، وقال تعالى –: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} سبأ: 40 – 41، وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} المائدة: 116.

9 – ومنها رده – سبحانه – على المشركين في اتخاذهم الوسائط بينهم وبين الله بأن الشفاعة ملك له – سبحانه، لا تطلب إلا منه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه بعد رضاه عن المشفوع له؛ قال – سبحانه –: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا

يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} الزمر: 43 – 44، وقوله – سبحانه –: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ} البقرة: 255، وقوله: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} النجم: 26.

فبين – سبحانه في هذه الآيات أن الشفاعة ملكه وحده، لا تطلب إلا منه، ولا تحصل إلا بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له.

10– ومنها: أنه بين – سبحانه – أن هؤلاء المعبودين من دونه لا يحصل منهم–نفع لمن عبدهم من جميع الوجوه، ومن هذا شأنه لا يصلح للعبادة؛ كما في قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} آل عمران: .164

11– ومنها: أنه – سبحانه – ضرب أمثلة كثيرة في القرآن يتضح بها بطلان الشرك، من ذلك قوله – سبحانه –: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} الأنعام: 137.

شَبَّه – سبحانه – التوحيد في علوه وارتفاعه وسعته وشرفه بالسماء، وشبه تارك التوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل السافلين؛ لأنه سقط من أوج الأيمان إلى حضيض الكفر، وشبه الشياطين التي تقلقه بالطير التي تمزق أعضاءه، وشبه هواه الذي يبعده عن الحق بالريح التي ترمي به في مكان بعيد.

هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة في القرآن، ذكرها الله – سبحانه – لبيان بطلان الشرك وخسارة المشرك في الدنيا والآخرة.

وما سقناه في هذا البحث من أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الألوهية وإبطال الشرك قليل من كثير، وما على المسلم إلا أن يقرأ القرآن بتدبر؛ ليجد الخير الكثير، والأدلة المقنعة، والبراهين الساطعة، التي ترسخ عقيدة التوحيد في قلب المؤمن، وتقتلع منه كل شبهة...

هؤلاء المشركون لما تركوا عبادة الله وحده لا شريك له، وهي التي خلقوا من أجلها، وبها سعادتهم؛ ابتلوا بعبادة الشياطين، وتفرقت بهم الأهواء والشهوات؛ كما قال الإمام ابن القيم – رحمه الله –:

"هربوا من الرق الذي خلقوا له، فبلوا برق النفس والشيطان، فلا اجتماع للقلوب، ولا صلاح للعالم؛ إلا بالتوحيد؛ كما قال تعالى–: {أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}، الأنبياء: 21، ولذلك إذا خلت الأرض من التوحيد؛ قامت القيامة؛ كما روى مسلم عن النبي ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله".

ومثل تفرق المشركين الأولين في عباداتهم ومعبوداتهم تفرق القبوريين اليوم في عبادة القبور؛ فكل منهم له ضريح خاص يتقرب إليه بأنواع العبادة، وكل طريقة من الطرق الصوفية لها شيخ اتخذه مريدوه ربا من دون الله؛ يشرع لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

وهكذا تلاعب الشيطان ببني آدم، ولا نجاة من شره ومكره إلا بتوحيد الله والاعتصام بكتابه وسنة رسوله.

لقد كانت الخليقة في هذه الفترة بين حائرة تتخذ آلهتها من حجارة منحوتة وأصنام منصوبة تعكف عندها وتطوف حولها وتقرب لها الذبائح من أنفس أموالها بل وحتى من أولادها؛ كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}، الأنعام: 137.

وفريق آخر – أهل الكتاب –: إما نصرانية حائرة ضلت عن سواء السبيل، فجعلت الآلهة ثلاثة، واتخذت من أحبارها وقديسيها أربابا من دون الله، وإما يهودية مدمرة، عاثت في الأرض فسادًا، وأشعلت نار الفتن، ونقضت عهد الله وميثاقه، وتلاعبت بنصوص كتابها حتى حرفتها عن مواضعها.

وفريق ثالث هم المجوس الذين يعبدون النيران، ويتخذون إلهين: أحدهما خالق للخير، والثاني خالق للشر بزعمهم.

وفريق رابع، وهم الصابئون الذين يعبدون الكواكب والنجوم، ويعتقدون تأثيرها في الأرض. وفريق خامس، هم الدهرية الذين لا يدينون بدين، ولا يؤمنون ببعث ولا حساب.

هكذا كانت حالة أهل الأرض عند بعثة النبي ﷺ، جهالة جهلاء، وضلالة عمياء؛ فأنقذ الله به من قبل دعوته واستجاب له من الظلمات إلى النور، وأعاد الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهدم الأوثان، ونهى عن الشرك، وسد كل الوسائل الموصلة إليه.

وإليك بيان الوسائل القولية والفعلية التي نهى عنها رسول الله ﷺ لأنها تفضي إلى الشرك:

1- نهى رسول الله ﷺ عن التلفظ بالألفاظ التي فيها التسوية بين الله وبين خلقه؛ مثل: "ما شاء الله وشئت"، "لولا الله وأنت"، وأمر بأن يقال بدل ذلك: (ما شاء الله ثم شئت)؛ لأن الواو تقتضي التسوية و"ثم" تقتضي الترتيب، وهذه التسوية في اللفظ شرك أصغر، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر.

2- نهى ﷺ عن الغلو في تعظيم القبور بالبناء عليها وإسراجها وتجصيصها والكتابة عليها.

3- نهى عن اتخاذ القبور مساجد للصلاة عندها؛ لأن ذلك وسيلة لعبادتها.

4- نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لما في ذلك في التشبه بالذين يسجدون لها في هذه الأوقات.

5- نهى عن السفر إلى أي مكان من الأمكنة بقصد التقرب إلى الله فيه بالعبادة؛ إلا إلى المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى.

6- نهى ﷺ عن الغلو في مدحه؛ فقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد؛ فقولوا: عبد الله ورسوله"، والإطراء هو المبالغة في المدح.

7- نهى ﷺ عن الوفاء بالنذر إذا كان في مكان يعبد فيه صنم أو يقان فيه عيد من أعياد الجاهلية.

كل هذا حذر منه؛ صيانة للتوحيد، وحفاظا عليه، وسدًا للوسائل والذرائع التي تفضي إليه.

المحاضرة (07)

وحدة التدبير في القرآن الكريم (سورة يوسف أنموذجا)

من كنوز التدبير في قصة يوسف

1 - "قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ" ، تنام الحقيقة، وتنام طويلًا أحيانًا.. لكنها لا تموت

2 - "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجهُ أبيكم" ، ما علموا أن الحبّ لا يغادر مع الأجساد!.

3 - ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ﴾، لم يحسدوه على المال ! عطايا القلب أثمن من عطايا اليد..

4 - تكرر القميص في قصة يوسف –عليه السلام– ثلاث مرات: فكان سبباً للحزن، ودليلاً للبراءة، وبشارة فرح.

فما قد يحزنك يوماً قد يكون سرورًا لك غداً.

5 ــ " وَاستَبَقا البَاب " قَد تَسيّران فِي دربٍ وَاحد.. لكِن النّوايَا مُختلِفة !.

6 - قيل ليوسف عليه السلام وهو في السجن : "إنا نراك من المحسنين"

وقيل له وهو على خزائن مصر: إنا نراك من المحسنين"

المعدن النقي لا تغيره الأحوال!

7 ــ " قلن حاشَ لله ماعلمنا عليه من سوء.." . تاريخك.. يساندك.. فاحرص عليه

العفة ليست مقتصرة على النساء؛ بل في الرجال أعظم: (قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي)

8 ــ (وشهد شاهد من أهلها): إذا اتقى العبد ربه، جعل له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا.. حتى أقرب الناس إلى خصمه يشهدون له ويؤيدون دعواه.

9 ــ "قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا" إذ كيف يأكله الذئب ولما تسجد له الكواكب بعد ؟ كن بمبشرات الخالق أوثق مما تراه عيناك

10 ــ "فأرسل معنا أخانا": كانت لهم مصلحة فقالوا: "أخانا"

وعندما انتهت المصلحة قالوا: "قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين".

أصبح: "يوسف"، وليس " أخانا"

وعندما انتهت المصلحة قالوا: ابنك "إن ابنك سرق": يتغيّرُ الخطابُ بتغيُّر المصالح عند الكثيرين.

11 ــ (وقال يا أسفى على يوسف): رغم أن كل أبنائه معه إلا يوسف.. بعض الأماكن لا يملؤها إلا شخص واحد.. ذلك أنه لا يعوضه أحد

12 ــ (اذهبوا بقميصي هذا).. اختار القميص دون غيره من أثار يوسف، ليدخل السرور عليه من الجهة التي دخل عليه الهم منها .

13 – (فَأسرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِه): أحياناً قد تسمع كلمات جارحه من مقربيك؛ فتجاهلها وأعرض عنها، ولا تستعجل الرد، ففي الكتمان خيرٌ عظيم.

14 ــ (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) فقده طفلا قبل سنين ويطلب البحث عنه!!..

إذا حدثوك عن الاحتمالات العقلية.. فحدثهم عن الثقة بالله.

15 ــ "وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن" ذكر يوسف السجن، ولم يذكر البئر حتى لا يُخجلِ إخوته.. القدوات يترفعون عن الانتقام وتصفيه الحسابات..

16 – ﴿ هِيَ راوَدَتني عَن نَفسي ﴾ : الأبرياء لُغتهم الهادئة الواثِقة تُغنيهم عن الحَلف ورَفع الصوت ومُحاولات الإقناع!

17 – ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: سمعوا كلمة ذئب من أبيهم فاستخدموها في الحيلة.. لا تبين السهم القاتل في توجيهاتك التربوية..

18 – ﴿أنا يوسف وهذا أخي﴾: لم يقل أنا عزيز مصر، بل ذكر اسمه خالياً من أي صفة..

صاحب النفس الرفيعة، لا يلتفت إلى المناصب ولا الرُتَب[1].

المحاضرة (08)

وحدة التدبير في القرآن (سورة القصص أنموذجا).

الفوائد التربوية من سورة القصص

تشتمل السورة المباركة على قصة موسى عليه السلام وبعض تفاصيلها وما فيها من الفوائد والعبر والدروس ومنها:

1. توجيه الهمة للدين والدعوة: (وجاء رجل من أقصا المدينة ...).
2. سنة الله في المؤمنين الصابرين: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين).
3. الابتلاء والاختبار في الدعوة والصبر عليه: (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك).

1 - الدكتور علي الصلابي.

4. وصبر الأم عند فراق حبيبها وفلذة كبدها: (فإذا خفت عليه فألقيه في اليم).

5. حفظ الله لأوليائه وأنصاره: (وحرمنا عليه المراضع من قبل..) (فرددناه إلى أمه كي تقر).

6. أجر وجزاء الإحسان: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلما).

7. الغيرة على عباده الله المؤمنين والدفاع عنهم في الحق: (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته).

8. عفو الله ورحمته ومغفرته بالمؤمنين المستغفرين: (قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له).

9. بر الوالدين والقيام على شؤنهما: (لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير).

10. احتقار الذات في طاعة الله: (فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير).

11. عدم احتقار الذات والأفكار وقد تكون فكرة سبب في نجاة شخص أو هدايته أو إقامة مشروع يحقق نجاح لا يخطر على بال: (وجاء رجل من أقصا المدينة .... فاخرج إني لك من الناصحين).

12. عفة النساء وحياؤهن وبعدهن عن مزاحمة الرجال: (ووجد من دونهم امرأتين تذودان.... لا نسقي حتى يصدر الرعاء) (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء).

13. مكان المرأة بيتها وهو حصنها وعفافها وجنتها: (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خيرمن استأجرت القوي الأمين).

14. الإعانة على الزواج وتذليل العقبات أمام المتزوجين: (فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك).

15. خدمة الغير وعدم انتظارالجزاء ولا الشكر (فسقى لهما).

16. كثرة اللجوء إلى الله والتضرع بين يديه: (قال رب إني ظلمت نفسي ...) (قال رب نجني من القوم الظالمين) (فلما توجه .... قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) (فقال رب إني لما انزلت إلي من خير فقير).

17. الاعتراف بالذنب والخطأ وطلب العفو والغفران: (فوكزه موسى فقضى عليه .. قال رب إني ظلمت نفسي).

18. طلب العفاف بالزواج والسعي للعفة: (إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن.....).

19. الشخص لا يكون عالة على غيره: (على أن تأجرني ثماني حجج)(فلما قضى موسى الأجل).

20. طلب مشاركة الغير في الدعوة ومعرفة الطاقات: (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي)

21. حفظ الله لعبده الصالح وتأييده له ونصرته وإذلال الأعداء: (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم)

22- إن الملك في علم الله جل جلاله: (ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) لا فلاح لظالم . (إنه لا يفلح الظالمون)

23. الظالم وجنوده مصيرهم الهلاك: (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون* فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) .

إن الظالم ملعون دائما وأبدا في الدنيا والآخرة: (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة)

24. إن طول العمر مضل للأمم ومجتمعاتها: (ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر).

25. إن التكذيب لله ورسله قد يكون خاصا وعاما بذريعة أو بغير ذريعة: (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل).

26. إن اتباع الهوى مضل: { إنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله }

27. لا هداية للظلمة: { إن الله لا يهدي القوم الظالمين }.

28. إن الهداية الإلهية للمجتمعات الإنسانية بأمر الله عز وجل: { إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين}.

29. إن البطر مؤداه الهلاك:{ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها }

30. إن مساكن الأمم والمجتمعات الهالكة قليلا ما تسكن من بعدهم: { فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا }

31. إن وراثة الملك لله عز وجل وحده: { وكنا نحن الوارثين }.وأن كل ملك زائل . (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون } .

32. أن التوبة والعمل الصالح نتيجتهما الفلاح: { فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين).

33. أن العلم مهما تطور لا يمكن إيجاد الخلق فيه: { وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون}.

34. الموازنة بين الدنيا والآخرة من رجاحة العقل: { وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا }

34. أن الفساد مؤداه الهلاك في الأمم والمجتمعات: { ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين }

35. أن التطور والتقدم في المعارف لا يعني الخروج من الهلاك الساحق بالكفر والظلم:{ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا }

36. أن الإجرام لا يحتاج إلى إيضاح: { ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون } و الظالم لا ناصر له. { فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين }.

37. إن الحسنة والسيئة لهما جزاء محدد من الله عز وجل لكل المجتمعات: { من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون }.

38. أن النصر الإلهي لا بد أن يأتي لمن آمن وعمل بالكتاب: { إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد }.

39. إنه لا يجوز أن يكون المؤمن ظهيرا للكافر: { فلا تكونن ظهيرا للكافرين }.

40. أن كل الكون زائل ولا يبقى إلا الله عز وجل: (كل شيء هالك إلا وجهه }، والحكم لله عز وجل{ له الحكم }.

القسم الثاني الحديث الموضوعي

المحاضرة (09)

المسيح عيسى عليه السلام في الحديث النبوي دراسة موضوعية

فضل سيدنا عيسى عليه السلام (ميلاده):

قال رسول الله ﷺ : "كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد، غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب"

سيدنا عيسى عليه السلام في ليلة الإسراء والمعراج:

قال رسول الله ﷺ: "لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربا ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل جعد ضرب، كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي، أقرب الناس به شبها عروة ابن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم – يعني نفسه – فحانت الصلاة، فأممتهم، فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد! هذا مالك صاحب النار، فسلم عليه، فالتفت إليه، فبدأني بالسلام"

سيدنا عيسى عليه السلام في ليلة الإسراء والمعراج:

(حدث نبي الله ﷺ عن ليلة أسري به) بينما أنا في الحطيم، وربما قال في الحجر، مضطجعا، إذ أتاني آت فقد – قال: وسمعته يقول : فشق – ما بين هذه إلى هذه – فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: من قصه إلى شعرته – فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض – فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم – يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل : من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح،

ثم صعد حتى إذا أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا، ثم قالا: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل : من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل : من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال : محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إلى إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي، حتى إذا أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل : من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال : هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى إذا أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل : من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال : هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له : ما يبكيك؟

قال: أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه، قال: نعم، قال: مرحبا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال : هذا أبوك فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، قال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح،

ثم رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة أنت عليها وأمتك، ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله

التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى،

فقال: بما أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك،

قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت نادى مناد : أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي.

صفة سيدنا عيسى عليه السلام:

قال رسول الله ﷺ: "رأيت ليلة أسري بي موسى، رجلا آدم، طوالا جعدا، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلا مربوعا، مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكا خازن النار، والدجال، في آيات أراهن الله إياه: {فلا تكن في مرية من لقائه}. قال أنس وأبو بكرة، عن النبي ﷺ : تحرس الملائكة المدينة من الدجال .

سيدنا محمد ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام:

قال رسول الله ﷺ: "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء أخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد".

حديـــث الشفـــاعة:

اجتمعنا ناس من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا بثابت البناني إليه، يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى، فاستأذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة،

فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة،

فقال: حدثنا محمد ﷺ قال : إذا كان يوم القيمة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجدا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا،

فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل فلما خرجنا من عند أنس، قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن، وهو متوار في منزل أبي خليفة، فحدثناه بما حدثنا أنس بن مالك، فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هيه، فحدثناه بالحديث، فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا: لم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثني، وهو جميع، منذ عشرين سنة، فلا أدري أنسي أم كره أن تتكلوا، قلنا يا أبا سعيد فحدثنا فضحك وقال: خلق الإنسان عجولا، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حدثني كما حدثكم به، وقال: ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله.

نزول سيدنا عيسى عليه السلام من علامات القيامة:

اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر. فقال "ما تذاكرون؟" قالوا: نذكر الساعة قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات. فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج. وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب. وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم.

قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أم بدابق. فيخرج إليهم جيش من المدينة. من خيار أهل الأرض يومئذ. فإذا تصادفوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا. والله! لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم. فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا. ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله. ويفتتح الثلث. لا يفتنون أبدا. فيفتتحون قسطنطينية. فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون وذلك باطل. فإذا جاءوا الشام خرج. فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة. فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم. فأمهم. فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء. فلو تركه لانذاب حتى يهلك. ولكن يقتله الله بيده. فيريهم دمه في حربته"

قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم حكما مقسطا وإماما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد"

قال رسول الله ﷺ: "يخرج الدجال في أمتي، فيمكث أربعين، فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيطلبه، فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه، حتى تقبضه، فيبقى شرار الناس، في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا، فيمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: بم تأمرنا ؟.

فيأمرهم بعبادة الأوثان، فيعبدونها، و هم في ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور، فلا يسمع أحد إلا أصغى ليتا، و رفع ليتا، وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله مطرا كأنه الطل، فينبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال: يا أيها الناس ! هلم إلى ربكم {وقفوهم إنهم مسئولون}، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم ؟

فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فذلك يوم يجعل الولدان شيبا، وذلك يوم يكشف عن ساق"

قال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس! إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وإن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين أظهركم، فأنا حجيج لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي، فكل حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق فيعيث يمينا وشمالا، يا عباد الله! أيها الناس! فاثبتوا فإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه قبلي نبي...

يقول: أنا ربكم، ولا ترون ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب أو غير كاتب. وإن من فتنته أن معه جنة ونارا، فناره جنة، وجنته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف... وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه، فإنه ربك، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها، ينشرها بالمنشار حتى تلقى شقين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا، فإني أبعثه ثم يزعم أن له ربا غيري، فيبعثه الله، ويقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت قط أشد بصيرة بك مني اليوم. وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر، فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت. وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه، فلا يبقى لهم سائمة إلا هلكت. وإن من فتنته أن يمر بالحي، فيصدقونه، فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت

فتنبت، حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت، وأعظمه، وأمده خواصر وأدره ضروعا وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه، إلا مكة والمدينة، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة، حتى يترل عند الضريب الأحمر، عند منقطع السبخة، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فلا يبقى فيها منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتنفي الخبيث منها، كما ينفي الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص، قيل: فأين العرب يومئذ؟ قال: هم يومئذ قليل... وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرى ليتقدم عيسى، فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له : تقدم فصل؛ فإنما لك أقيمت، فيصلى بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتحون ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء. وينطلق هاربا،... فيدركه عند باب لد الشرقي، فيقتله، فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله عز وجل يتواقى به يهودي، إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة، إلا الغرقدة، فإنها من شجرهم لا تنطق، إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال اقتله.

فيكون عيسى ابن مريم في أمتي حكما عدلا، وإماما مقسطا يدق الصليب، ويذبح الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض، وتترع حمة كل ذات حمة، حتى يدخل الوليد يده في في الحية، فلا تضره، وتضر الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض كفاثور الفضة، تنبت نباتها بعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا وكذا من المال، ويكون الفرس بالدريهمات...

وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا يبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله، قيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: التهليل، والتكبير، والتحميد، ويجزئ ذلك عليهم مجزأة الطعام"

قال رسول الله ﷺ: "يترل عيسى بن مريم عليهما السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق"

قال رسول الله ﷺ : "يترل عيسى بن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق عليه ممصرتان كأن رأسه يقطر منه الجمان"

فضل أمة الإسلام:

قال رسول الله ﷺ : "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال، فيترل عيسى بن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صل بنا. فيقول: لا. إن بعضكم على بعض أمراء. تكرمة الله هذه الأمة"

إيمان سيدنا عيسى عليه السلام :

قال رسول الله ﷺ : "رأى عيسى بن مريم رجلا يسرق. فقال له عيسى: سرقت؟ قال : كلا. والذي لا إله إلا هو! فقال عيسى: أمنت بالله. وكذبت نفسي".

عيسى عليه السلام عبـــد اللـــه ورسوله (غال فيه النصارى):

قال رسول الله ﷺ : "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله"

الأنبياء أخوة:

قال رسول الله ﷺ : "الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، و دينهم واحد، و أنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه [ليس بيني و بينه نبي، و إنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع، إلى الحمرة و البياض، بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر، و إن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس ع لى

الإسلام، فيدق الصليب، و يقتل الخنزير، و يضع الجزية، و يهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، و يهلك الله المسيح الدجال، [وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، و النمار مع البقر، و الذئاب مع الغنم، و يلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم]، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون"

قتال المسلمين مع سيدنا عيسى عليه السلام:

قال رسول الله ﷺ :" عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار: عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم عليه السلام".

جزاء من يعبد سيدنا عيسى عليه السلام:

يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القاء قال: ويترل الله عز وجل في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ثم ينادي مناد أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا أن يولى كل أناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون في الدنيا، أليس ذلك عدلا من ربكم ؟ قالوا :بلى، فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويتولون في الدنيا، – فال:– فينطلقون، ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون، فمنهم من ينطلق إلى الشمس، ومنهم من ينطلق إلى القمر، والأوثان من الحجارة وأشباه ما كانوا يعبدون،– قال:– ويمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويمثل لمن كان يعبد عزيزا شيطان عزيز، ويبقى محمد أمته، قال: فيتمثل الرب تبارك وتعالى، فيأتيهم فيقول :مالكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ قال :فيقولون: إن لنا إلها ما رأيناه (بعد (فيقول :هل تعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: إن بيننا وبينه علامة إذا رأيناه، عرفناه، قال فيقول: ماهي؟ فيقولون :يكشف عن ساقه، (قال: (فعند ذلك يكشف عن ساقه، فيخر كل من كان لظهره طبق ساجدا، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر، يريدون السجود فلا يستطعيون،) وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون(ثم يقول : ارفعوا رؤوسكم، فيرفعون روؤسهم، فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم، يسعى بين أيديهم، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك، ومنهم من يعطى مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة، ويطفأ مرة، فإذا أضاء قدمه قدم (ومشى) وإذا طفيء قام، قال: والرب تبارك وتعالى أمامهم حتى يمر بهم إلى النار فيبقى أثره كحد السيف (دحض مزله) قال: فيقول: مروا، فيمرون على قدر نورهم، منهم من يمر كطرفة العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالسحاب، ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الفرس، ومنهم من يمر كشد الرجل، حتى يمر الذي يعطى نوره على ظهر (إبهام) قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه، تخر يد وتعلق يد، وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها فقال :الحمد لله الذي أعطاني ما لم يعط أحدا، إذ أنجاني منها بعد إذ رأيتها قال :فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل، فيعود إليه ريح أهل الجنة وألوانهم، فيرى ما في الجنة من خلال الباب، فيقول: رب أدخلني الجنة فيقول الله (له): أتسأل الجنة وقد نجيتك من النار ؟ فيقول: رب اجعل بيني وبينها حجابا حتى لا أسمع حسيسها قال :فيدخل الجنة، ويرى أو يرفع له مترل أمام ذلك كأن ما هو فيه بالنسبة إليه حلم، فيقول :رب! أعطني ذلك المترل فيقول (له) لعلك إن أعطيتك تسأل غيره؟ فيقول لا وعزتك لا أسألك غيره، وإني مترل أحسن منه ؟ فيعطاه، فيترله، ويرى أمام ذلك مترلا، كأن ماهو فيه بالنسبة إليه حلم قال: رب أعطني ذلك المترل فيقول الله تبارك وتعالى له :لعلك إن أعطيتك تسأل غيره ؟ فيقول :لا وعزتك (لا أسألك) وإني مترل أحسن منه؟ فيعطاه فيترله، ثم يسكت فيقول الله جل ذكره: مالك لا تسأل؟ فيقول: رب! قد سألتك حتى استحييتك، (أقسمت لك حتى استحييتك (فيقول الله جل ذكره: ألم ترض أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافه ؟ فيقول: أتهزأ بي وأنت رب العزة؟ (فيضحك الرب عز وجل من قوله قال: فرأيت عبدالله بن مسعود إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك، فقال له رجل :يا أبا عبد الرحمن! قد سمعتك تحدث هذا الحديث مرارا، كلما بلغت هذا المكان ضحكت؟ فقال: إني سمعت رسول الله يحدث هذا الحديث مرارا كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه(، قال: فيقول الرب جل ذكره: لا، ولكني على ذلك قادر، فيقول: ألحقني بالناس، فيقول: الحق بالناس. فينطلق يرمل في الجنة، حتى

إذا دنا من الناس رفع له قصر من درة، فيخر ساجدا، فيقول له: ارفع رأسك مالك؟ فيقول: رأيت ربي أو تراءى لي ربي، فيقال إنما هو منزل من منازلك قال ثم يلقى رجلا فيتهيأ للسجود له فيقال له: مه! فيقول :رأيت أنك ملك من الملائكة، فيقول: إنما أنا خازن من خزانك، وعبد من عبيدك، تحت يدي ألف قهرمان على (مثل (ما أنا عليه قال: فينطلق أمامه حتى يفتح له باب القصر، قال وهو من درة مجوفة شقائقها وأبوابها وإغلاقها ومفاتيحها منها، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمراء (فيها سبعون بابا، كل باب يقضي إلى جوهرة خضراء، مبطنة كل جوهرة تفضي إلى جوهرة على غير لون الأخرى، في كل جوهرة سرر وأزواج ووصائف، أدناهن حوراء عيناء، عليها سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء حللها، كبدها مرآته، وكبده مرآتها إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفا عما كانت قبل ذلك فيقول لها :والله لقد ازددت في عيني سبعين ضعفا عما كنت قبل ذلك، وتقول له وأنت (والله) لقد ازددت في عيني سبعين ضعفا فيقال له: أشرف، أشرف. فيشرف، فيقال له: ملكك مسيرة مئة عام، ينفذه بصرك قال: فقال له عمر: ألا تسمع ما يحدثنا ابن أم عبد ياكعب عن أدنى أهل الجنة منزلا، فكيف أعلاهم؟ قال: يا أمير المؤمنين مالا عين رأت ولا أذن سمعت، فذكر الحديث.

حديث سيدنا عيسى عليه السلام و سيدنا يحي بن زكريا:

إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن . فكأنه أبطأ بهن، فأتاه عيسى فقال: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تخبرهم، وإما أن أخبرهم.

فقال: يا أخي! لا تفعل، فإني أخاف إن سبقتني بهن أن يخسف بي أو أعذب.

قال: فجمع بني إسرائيل ببيت المقدس حتى امتلأ المسجد، وقعدوا على الشرفات، ثم خطبهم فقال: إن الله أوحى إلي بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن : أولهن [أن] لا تشركوا بالله شيئا، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق، ثم أسكنه دارا فقال : اعمل وارفع إلي . فجعل يعمل ويرفع إلى غير سيده ! فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؛ فإن الله خلقكم ورزقكم، فلا تشركوا به شيئا . وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا، فإن الله يقبل بوجهه إلى وجه عبده ما لم يلتفت . وأمركم بالصيام، ومثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة من مسك، كلهم يحب أن يجد ريحها، وإن الصيام أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقربوه ليضربوا عنقه، فجعل يقول: هل لكم أن أفدى نفسي منكم، وجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه. وآمركم بذكر الله كثيرا، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره، حتى أتى حصنا حصينا، فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان **إلا بذكر الله. الحديث.**

التوحيـــد:

قال رسول الله ﷺ: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله؛ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل – زاد جنادة : ـــ من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء "

حجة سيدنا عيسى عليه السلام:

يلقى عيسى حجته، فلقاه الله في قوله: {وإذ قال عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟} قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: فلقاه الله: (سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) الآية كلها.

فضل سيدنا عيسى عليه السلام:

قال رسول الله ﷺ: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة؛ إلا ابني الخالة عيسى بن مريم ويحيي بن زكريا، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة؛ إلا ما كان من مريم بنت عمران".

التبشير بالنبي ﷺ :

قال رسول الله ﷺ: "أخذ الله عز وجل مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم، وبشر بي عيسى ابن مريم، ورأت أمي في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام "

قال رسول الله ﷺ: "أنا دعوة إبراهيم، وكان آخر من بشر بي عيسى ابن مريم".

ملخص:

اعتقاد أهل السنة في عيسى عليه السلام

يحكم عيسى عليه السلام بشريعة الإسلام، ويكون من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا يترل بشرع جديد، لأن دين الإسلام خاتم الأديان، وباق إلى قيام الساعة، لا ينسخ.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد: فلم يكن المسلمون في عصر من العصور أحوج لتصحيح المعتقد في أمور الألوهية والرسالة والنبوة مما يتعلق بعيسى عليه السلام من هذا العصر الذي نعيشه، لأن هذه القضايا ستتفاعل قريباً، وستحتاج إلى الفهم السديد دون تحريف الغاليين أو انتحال المبطلين، فالكلام حول شخصية عيسى عليه السلام والحديث المفترى عن ألوهيته أو بنوته، سيتكثف مع الحديث عن بشريته ونبوته وذلك كلما ضاعف النصارى من حملتهم للفت الأنظار إلى قرب عودته.

ولقد اتفق الكتابان (التوراة والإنجيل) معاً ليكّونا عند النصارى عقيدة لا تتزحزح عن عودة المسيح ابن مريم إلى الأرض في آخر الزمان، وعلى رأس ألفية[1] ، وزاد النصارى على ذلك في معتقدهم أن اليهود الذين سيكونون قد تجمعوا في القدس قبل عودة المسيح عليه السلام سيتنصرون هناك عند عودته، ويعتقد النصارى أن هناك عدواً كافراً سيخرج قبيل عودة عيسى عليه السلام، وأنه سوف يكون من اليهود، وأكثر أتباعه من اليهود وأنه سيسود العالم كله، ولكنهم مع ذلك يؤمنون بأن عيسى عليه السلام سينـــزل في غمرة فتنة الدجال ليخلص العالم منه ومن اليهود أيضاً..

ونحن أهل الإسلام لا نشك أن اليهود بمجموعهم سيكونون طليعة أنصار الدجال فهو منهم وإليهم وخاصة يهود الشرق الذين سيخرج فيهم. قال ابن تيمية: "اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس هو عيسى ابن مريم، بل هو آخر ينتظرونه، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال، فإنه الذي يتبعه اليهود ويخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان"[2]، أما النصارى فعلى الرغم من أنهم يزعمون أنهم سيكونون في جيوش المسيح الحق ضد المسيح الدجال، فالله يعلم أنهم ـــ بجميع طوائفهم ـــ هم الذين هيأوا أنفسهم لكي يكونوا أول المصدقين بالدجال!! أليس هم الذين اعتنقوا عقيدة أن المسيح عيسى عليه السلام هو الإله القادر على كل شيء ؟! والمسيح الدجال سيقول أنا المسيح الإله القادر على كل شيء !!

فما الذي سيكون مستغربا في دعوة الدجال على مسامع النصارى الذين لا يستهجنون أن يتجسد الإله في صورة إنسان! خاصة وأنه لن يمنعهم ـــ ومعهم اليهود ـــ من مشاركته في فرض السيطرة النهائية على العالم باعتبارهم أتباعه لأنه المسيح المخلص والإله القدير !!

ونحن أهل الإسلام لا نشك في خروج الدجال، وإن كنا لا نعلم موعده، ولكن مقصودنا هنا التنبيه على أن اليهود والنصارى يستعدون لخروجه، ومع ذلك فهو مسيح الضلالة الذي تعاقب به أمتي الضلالة، الذين تكبروا عن الإيمان بمحمد سيد الرسل عليه صلوات الله وسلامه، وفضلوا أن يبقوا على ديانات منسوخة؛ لم تلبث أن تحولت إلى ديانات ممسوخة بالافتراء على الله والكذب على أنبياء الله. يقول الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، آل عمران: 71، وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}، آل عمران: 187.

ملخص عقيدة أهل السنة والجماعة في عيسى عليه السلام:

---

1 ـــ ولا دليل على ذلك فقد يترل على رأس ألفية وقد يترل في ثناياها.

2 ـــ ينظر: الجواب الصحيح، 177/1.

1 ــ إن أهل الإيمان يؤمنون بعيسى عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول قال تعالى: { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}، النساء : 171.

2 ــ أن الله تعالى رفعه إليه بروحه وجسده، وأنه حي الآن في السماء، و لم يقتل و لم يصلب قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، النساء: 157 -158.

3 ــ سيترل عيسى عليه السلام في آخر الزمان والله أعلم متى نزوله روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن يترل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب، ويقتل الخترير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وزاد في رواية وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها».

4 ــ أخبر النبي ﷺ عن صفته في أحاديث منها ما رواه أبو داود بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس بيني وبينه نبي ــ يعني عيسى ــ وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، يترل بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخترير ويضع الجزية ويُهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون».

5 ــ بين النبي ﷺ أين يترل كما جاء في البخاري وغيره بأنه سيترل عند المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق، لا كما يظنه النصارى بأنه سيترل عند البوابة الشرقية في القدس القديمة (الباب الذهبي) وقد وضعوا هناك آلة تصوير حية لنقل نزول المسيح عليه السلام للعالم كله.

قال رسول الله ﷺ : "يترل عيسى بن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق عليه ممصرتان كأن رأسه يقطر منه الجمان".

6 ــ سيترل عليه السلام وعليه مهرودتان ــ أي ثوبان مصبوغان بورس ثم زعفران ــ واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه .

7 ــ يكون نزوله على الطائفة المنصورة التي تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدجال، فيترل وقت إقامة صلاة الفجر، يصلي خلف أمير تلك الطائفة.

8 ــ يحكم عيسى عليه السلام بشريعة الإسلام، ويكون من أتباع محمد ﷺ؛ فإنه لا يترل بشرع جديد، لأن دين الإسلام خاتم الأديان، وباق إلى قيام الساعة، لا ينسخ، فيكون عيسى حاكماً من حكام هذه الأمة، ومجدداً لأمر الإسلام، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ.

9ــ سيكون على يديه قتل الدجال فعندما يعلم الدجال بترله يهرب فيلحقه نبي الله إلى بيت المقدس فيدركه وقد حاصر عصابة من المسلمين، فيأمرهم عيسى بفتح الباب فيفعلون ويكون وراءه الدجال فينطلق هارباً فيلحقه نبي الله فيدركه عند باب اللد الشرقي[1]، فيقضي عليه وعلى من معه من يهود، وبعد أن يقضي على الدجال يخرج يأجوج ومأجوج فيفسد هؤلاء القوم في الأرض فساداً كبيراً، فيتضرع نبي الله إلى ربه فيهلكهم شر هلكة ..

10ــ ولقد أخبرنا نبينا ﷺ أن مدة بقاء نبي الله عيسى عليه السلام في الأرض أربعون عاماً، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح .

إن اليهود والنصارى يتعجلون اليوم أمر الساعة أكثر من أي يوم مضى، ولا ندري ما هي الأقدار المخبأة وراء تلك العجلة، إن أهل الإيمان الحق ليسوا على عجلة من أمرهم في شيء؛ وهم يعلمون أن الله لا يعجل بعجلة الناس، ويعلمون أن أمر الساعة شيء عظيم، ولهذا فهم لا يتعجلونها ولا يتعجلون أماراتها، لأنهم يخشون الابتلاء والفتنة ولا يعرف أحدهم هل ينجو في أيام الفتن والملاحم فيكون من المهتدين، أم

1 ــ **اللد**: بلدة مشهورة من أعمال فلسطين، بينها وبين رملة فلسطين مقدار فرسخ إلى جهة الشمال.

يسقط في الفتنة إذا أشرأبت له فيكون من الهالكين عياذا بالله، وما أهل الإيمان وأهل الكتاب والساعة إلا كما قال الله عز وجل: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}، الشورى: 18.

المحاضرة (10)

عقيدة المهدي المنتظر من خلال السنة النبوية دراسة مقارنة

يعتقد أهل السنة أن من أشراط الساعة خروج المهدي آخر الزمان، فيملك سبع سنين، يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وتخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، ويفيض المال.

وقد جاءت السنة ببيان اسمه وصفته ومكان خروجه، فمن ذلك:

1- ما رواه أحمد والترمذي وأبو داود أن النبي ﷺ قال: "لا تذهب أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطيء اسمه اسمي" وفي رواية لأبي داود: "يواطيء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي". والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه أحمد شاكر والألباني.

2- وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطا وعدلاً، كما ملئت ظلما وجوراً، يملك سبع سنين" رواه أبو داود والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

3- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "المهدي من عترتي من ولد فاطمة" رواه أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني.

4- وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: "المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة" رواه أحمد وابن ماجه، وصححه أحمد شاكر والألباني.

قال ابن كثير في كتابه النهاية في الفتن والملاحم: (أي يتوب الله عليه، ويوفقه ويلهمه، ويرشده بعد أن لم يكن كذلك).

5- وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: "يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويُعطي المال صحاحاً، وتخرج الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانياً. يعني حججا" رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وقال عنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: هذا سند صحيح رجاله ثقات.

6- وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم ثم ذكر شيئاً لم أحفظه فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي" رواه ابن ماجه والحاكم وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير: هذا إسناد قوي صحيح.

قال ابن كثير: "والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دل على ذلك بعض الأحاديث" انتهى.

وقال ابن كثير أيضاً: "والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتل عنده ليأخذوه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق، لا من سرداب سامرا، كما يزعمه جهلة الرافضة من وجوده فيه الآن، وهم ينتظرون آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان، شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك ولا برهان، لا من كتاب ولا سنة ولا معقول صحيح ولا استحسان" انتهى.

وقال ابن القيم في المنار المنيف: (ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن يلد الذي كلمتموه بجهلكم ما آنا؟

فعلى عقولكم العفـــاء فإنكم ثلثتم العنقـــاء والغيلانـــا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل) انتهى.

7- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم" رواه البخاري ومسلم.

8- وعن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة"، قال: "فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم: تعال صل لنا. فيقول: لا. إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة" رواه مسلم. وفي رواية عند الحارث بن أبي أسامة " فيقول أميرهم المهدي: تعال صل بنا..." الحديث، قال عنه ابن القيم في المنار المنيف: هذا إسناد جيد.

فهذا بعض ما ورد في ذكر المهدي وخروجه آخر الزمان.

وليعلم أن أحاديثه بلغت حد التواتر كما صرح بذلك جماعة من أهل العلم. قال السفاريني في لوامع الأنوار البهية (وقد كثرت بخروجه الروايات، حتى بلغت حد التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السنة، حتى عُدّ من معتقداتهم" إلى أن قال: "وقد روي عمن ذُكر من الصحابة وغير من ذُكر منهم رضي الله عنهم، بروايات متعددة، وعن التابعين من بعدهم، ما يفيد مجموعه العلم القطعي ، فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرر عند أهل العلم ، ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة".

وقال الشوكاني: "والأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر، التي أمكن الوقوف عليها ، منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول..." انتهى.

وقد أنكر جماعة خروج المهدي محتجين بحديث "ولا مهدي إلا عيسى ابن مريم" وهو حديث رواه ابن ماجه والحاكم، لكنه ضعيف كما جزم بذلك جماعة منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره. والله أعلم.

المحاضرة (11)

القضاء والقدر من خلال السنة النبوية

الأدلة العامة من السنة النبوية على وجوب الإيمان بالقدر

دلت نصوص السنة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً، ولكن نعرض لبعضها، فمنها:

1 - حديث جبريل المشهور – برواياته المختلفة[1] .

1 ــ الحديث رواه مسلم 8، ورواه أبو داود، 4695، والترمذي، 2610،

2 – حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه))[1]، فنفى الإيمان حتى يؤمن العبد بالقدر، وأن ما يجري عليه إنما هو بقدر من الله لا يتغير أبداً، ونفي الإيمان عمن لم يؤمن بالقدر يدل على وجوبه.

3 – حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر))[2]

فالمراد بالحديث نفي أصل الإيمان عن من لم يؤمن بهذه الأربع: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، ويؤمن بالموت: أي فناء الدنيا، أو المراد: اعتقاد أن الموت يحصل بأمر الله لا بفساد المزاج كما يقول الطبائعيون، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر، وأن كل ما يجري بقدر الله تعالى وقضائه، ونفي أصل الإيمان عمن لم يؤمن بهذه الأمور يدل على وجوب الإيمان بها.

4 – حديث طاوس قال: أدركت أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز))[3]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [القمر:48-49]))[4] وهذان الحديثان يدلان على التصريح بإثبات القدر وأنه عام في كل شيء، حتى أن العاجز قد قدر عجزه، والكيس قد قدر كيسه، فكل ذلك مقدر في الأزل، معلوم لله مراد له، وهذا يدل على وجوب الإيمان بالقدر.

5 – حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاث من أصل الإيمان الكف عمن قال: لا إله إلا الله، ولا نكفره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار))[5] فإذا كان الإيمان بالأقدار من أصل الإيمان فيجب الإيمان به.

6 – وقد ورد عن النبي ﷺ التحذير من التكذيب بالقدر، وذلك في الحديث الذي رواه أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ((لا يدخل الجنة عاق، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر))[6] ولا شك أن هذه الأمور المنفي دخول الجنة بسببها متفاوتة وأعظمها التكذيب بالقدر، فالتصديق بالقدر واجب وسبب لدخول الجنة.

الإيمان بالقضاء والقدر، من العقائد التي يجب أن تعلم بالضرورة. أشار إلى هذا صاحب الجوهرة، وواجب إيماننا بالقدر وبالقضاء كما أتى في الخبر، لقوله ﷺ: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره"، رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

والقضاء تعلق علم الله وإرادته بإيجاد الأشياء على وجه مخصوص والقدر إيجادها فعلاً على هذا النحو.

تعلق القضاء بالعلم، وتعلقت الإرادة بالقدرة والفعل.

وقد بين النبي ﷺ أن هناك علاقة بين توحيد الألوهية وبين القضاء والقدر، فقال ﷺ، فيما رواه الديلمي بمسند الفردوس: " الإيمان بالقدر نظام التوحيد".

النتائج النفسية التي يحققها الإيمان بالقضاء والقدر فيما رواه الحاكم في تاريخه: " الإيمان بالقدر يُذهب الهم والحزن".

---

1 ــ رواه الترمذي 2144، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

2 ــ رواه الترمذي 2145، حسنه أبن حجر في تخريج مشكاة المصابيح، 100/1.

3 ــ رواه مسلم 2655، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا.

4 ــ رواه مسلم، 2656، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

5 ــ رواه أبو داود 2532، له شواهد وحسنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح، 83/1، كما قال في المقدمة.

6 ــ رواه أحمد 441/6، والبزار 45/10، قال البزار إسناده حسن.

ولكن النبي ﷺ نهانا عن الخوض في موضوع القضاء والقدر، والبحث في مكنون أسرارهما، لأن المخلوق الحادث لا يستطيع أن يدرك علم الخالق القديم، فقالﷺ: (إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا، وغذا ذُكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكر القدر فأمسكوا). رواه الطبراني وابن عدي بسند حسن.

والمؤمن يجب أن يعتقد أن جميع أفعال العباد، وكل حادث في الكون إنا هو بقضاء الله وقدره، ولكنَّ مشيئة الله شاءت أن يكون للإنسان مشيئة حرة، هي أساس التكليف، والابتلاء، ومناط الثواب والعقاب، وبسببها يكسب الإنسان الخير، أو الشر، فيُثاب على الخير، ويُعاقب على الشر قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ، البقرة: 286

والقضاء والقدر نوعان : نوع لا كسب فيه للإنسان ؛ لأنه لا إرادة له فيه ولا يؤاخذ عليه، كحركة الأفلاك والأنواء، ونزول المطر، ونمو النبات، واختلاف أحوال الناس من صحة ومرض، وقوة وضعف وغنى وفقر، وحياة وموت، وبما أن من لوازم الحكيم، أن تكون أفعاله حكيمة، والقضاء والقدر من أفعاله، فالقضاء والقدر الذي لا كسب للإنسان فيه متعلق بالحكمة، والحكمة متعلقة بالخير المحض، قال تعالى مشيراً إلى هذا النوع من القضاء والقدر: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، آل عمران: 26

والنوع الثاني من القضاء والقدر متصل بأفعال العباد، فالإنسان مُنح إرادة حرة هي أساس التكليف، والابتلاء، وقد منحه الله أيضاً مقومات التكليف، والابتلاء، فسخر له ما في السماوات والأرض تسخير تعريف وتكريم، ليؤمن به ويشكره، ومنحه العقل قوةً إدراكية يتعرف به إلى الله خلال الكون المسخر، قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، الرحمن: 7.

وبعث الأنبياء والرسل، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليكون منهجاً للإنسان يهتدي به.. قال تعالى :

﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ، طه: 123.

وأودع الله في الإنسان الشهوات، ليرقى بها صابراً أو شاكراً إلى رب الأرض والسماوات، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)﴾ ، سورة النازعات.

لقد منح الإنسان إرادة حرة، لتكون أساس التكليف والابتلاء، وليكون النجاح بها ثمن العطاء، ومادام الإنسان قد مُنح هذه الإرادة الحرة ليكسب بها أعماله الاختيارية، وليكون مسؤولاً في حدود ما منحه الله إمكانات، فلن تُسلب منه هذه الإرادة الحرة ؛ لأنه يستحيل أن تتناقض إرادات الله، ومتى توجهت إرادة الإنسان إلى فعل شيء، في الدائرة التي هي مناط اختياره، تعلقت إرادة الله فأمدته بالقدرة على تحقيقها وسيَّرت الفعل الاختياري الكسبي للإنسان إلى الجهة التي تستحق الخير أو الشر، وهكذا تُوظَّف مشيئة الإنسان الحرة الخيِّرة، أو الشريرة للخير المطلق. قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129)﴾، الأنعام: 129

وهنا محل الإشارة إلى مقولة : " إن الله خالق لفعل الإنسان " فهذا لا يعني أنه أجبره عليه، ولا يعني أيضاً أنه رضيه منه، ومقولة : " إن الله علم ما كان وما سيكون " لا يعني أن علم الله هو إلغاء لاختيار الإنسان، إنه علم كشف وليس جبراً، فالجبر يتناقض مع التكليف .

ويضيف بعض العلماء على مقومات التكليف، القدرة الظاهرة على تنفيذ مشيئة الإنسان، وهي في حقيقتها قدرة الله التي تتحقق بها مشيئة الإنسان

والابتلاء والمسؤولية والجزاء والثواب والعقاب.. لقول الله عز وجل:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149)﴾، الأنعام: 148-149.

وهذه آية محكمة هي أصل في نفي الجبرية، وتُحمل الآيات المتشابهة كما هو رأي علماء الأصول على الآيات المحكمة.

ولعل في قول سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما الحسن بن علي رضي الله عنهما : هو سبط رسول الله ﷺ، وريحانته، وأشبه خلق الله به في وجهه، ولد في سنة 3هـ. كان يحبه ﷺ، وكان أكثر دهره صامتاً، فلا يدخل في مراء، ولا يُدلي بحجة حتى يرى قاضياً، توفي بعد

وفاة والده بستة أشهر. وصالح معاوية سنة 41هـ وسُمي ذلك العام عام الصلح، ورُفع مقامه فهو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة.(سير الأعلام 245/3)، البداية والنهاية: 42/8.

تلخيصاً لعقيدة القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة:

من لم يؤمن بقضاء الله فقد كفر، ومن حمل ذنبه على الله فقد فجر، وإن الله تعالى لا يُطاع استكراهاً، ولا يُعصى بغلبة، لأنه تعالى مالكٌ لما ملّكهم، وقادرٌ على ما أقدرهم، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا وإن عملوا بالمعصية فليس هو الذي أجبرهم على ذلك، ولو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لأسقط العقاب، ولو أهملهم كان ذلك عجزاً في القدرة، فإن عملوا بالطاعة فله المنّة عليهم، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم" .انظر (المرقاة 52/1) نقلاً عن تائية القضاء والقدر وشرحها.

وللحسن البصري رضي الله عنه أجوبة شافية في القضاء والقدر، فعندما قيل له : إن الله أجبر عباده ؟ قال : الله أعدل من ذلك، فلمَّا قيل له : أفوض

إليهم ؟ قال: هو أعزُّ من ذلك، ثم قال: لو أجبرهم لما عذبهم، ولو فوَّض إليهم لما كان للأمر معنى.

وهناك من يعتذر بالقضاء والقدر ليتنصل من المسؤولية، وهذا عذرٌ واهٍ وحجة باطلة.

فتجاهل الإرادة الحرة التي منحها الله للإنسان، وكذلك الفكر الذي يميز به الخير من الشر، والشرع الذي فيه تبيان لكل شيء، فإن هذا التجاهل لا يُعفي صاحبه من المسؤولية.

أتي برجل سارق إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال له عمر : ما حملك على السرقة ؟ فقال : قضاء الله وقدره يا أمير المؤمنين فأمر عمر بقطع يده ثم حسمت، ثم جلده ثمانين جلدة، وقال له: إنما قطعت يدك لسرقتك، وإنما جلدتك لكذبك على الله واحتجاجك بالقضاء والقدر، فقضاء الله تعالى لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار. (من كتاب شرح الطريقة المحمدية للشيخ عبد الغني النابلسي).

وعند أهل السنة والجماعة هناك فرق بين القضاء والمقضي، فالقضاء فعل الله تعالى وإرادته ومشيئته، وقضاء الله تعالى كلّه حق، وكله للعباد، وكله حسن، والمقضي هو كسب العبد وفعله ظاهراً، وفيه العدل والجور، والخير والشر، والحسن والقبح، ويجب على المسلم بناء على هذا ــ أن يقاوم المقضي إذا كان جوراً، أو شراً، أو قبحاً لا أن يستسلم له؛ لأن الرضا بالكفر كفر، والرضا بالظلم ظلم، وهكذا قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾، الشورى:39.

فإن عجز المسلم عن إزالة المقضي، أو مقاومته، فعليه أن يضرع إلى الله أن ينجيه منه، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43)**﴾ ، الأنعام: 42-43.

وللدعاء أثر في رد القضاء، فقد قال ﷺ: (**الدعاء يردُّ القضاء**). رواه الحاكم في صحيحه عن ثوبان.

وقال أيضاً : "**لا يردُّ القدر إلا الدعاء**". رواه الترمذي والحاكم عن سلمان بسند صحيح.

فالدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه، ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن .

انظر الطب النبوي لابن قيم الجوزية.

وقد أشار العلامة البيجوري في حاشيته على جوهرة التوحيد عند قول الناظم: وعندنا أن الدعاء ينفع كما من القرآن وعداً يُسمع.

لقد أشار إلى أن الدعاء ينفع في القضاء المبرم، فيكون اللطف، وفي القضاء المعلق فيكون الدفع.

لذلك لا يُجدي الذكاء، والحيطة، والحذر، في ردِّ القضاء، ولكن الدعاء المخلص، عقب التوبة الصادقة، ينفع في ردِّ القضاء، أو اللطف به.. قال ﷺ: "**لا يُغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل**" رواه الحاكم في صحيحه عن عائشة.

والإيمان بالقضاء والقدر لا يتناقض مع الأخذ بالأسباب، فلا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض، فكيف بمعادهم، فإن الله أمرنا أن ندفع السيئة وهي من قضائه وقدره، بالحسنة وهي من قضائه وقدره، فقد روى الإمام البخاري عن عمر بن الخطاب وعن الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، أنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية، بلغهم أن بها موتاً عظيماً، ووباءً ذريعاً، فافترق الناس فرقتين،

فقال بعضهم: لا ندخل على الوباء، فنلقي بأيدينا إلى التهلكة، وقالت طائفة أخرى: بل ندخل ونتوكل، ولا نهرب من قدر الله، ولا نفر من الموت، فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه فقال: نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له المخالفون لرأيه: أنفرُّ من قدر الله؟ فقال عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله!، أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط وادياً له شعبتان، إحداهما مخصبة، والأخرى مجدبة، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى، وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله؟."

ومن ثمرات الإيمان الصحيح المتوازن بالقضاء والقدر:

1 ــ الاستقامةُ على أمر الله، والعمل بما يرضيه لأنه ؛ ﴿ إليه يُرجعُ الأمرُ كُلُّهُ﴾ ، هود: 123

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، فاطر:2.

2 ــ الشجاعة، والإقدام، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يعرفون جبناً، ولا إحجاماً، ففي آذانهم دويُّ التوجيه الإلهي، قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)﴾ ، التوبة:51.

3 ــ **التحلي بالصبر الجميل، والرضا والتسليم،** فعندما تنزل المصائب، يذكر المؤمن عند الصدمة الأولى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)﴾، البقرة:155ــ 156.

وهكذا نجد أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن خطير من أركان الإيمان وهو من العقائد الأساسية التي يجب أن تُعلم بالضرورة[1].

المحاضرة (11)

حقيقة الشرك من خلال الحديث النبوي

الشرك بالله وأنواعه:

ففي هذه المقالة[2] أخطرُ وأعظم الكبائر التي يجدُر بكلِّ مسلم أن يوليها اهتمامه، علمًا بها وحذرًا من اقترافها، ألا وهو الشِّرْك بالله تعالى؛ لماذا؟ لأنَّ الشرْك بالله تعالى مِن أعظم الكبائِر على الإطلاق، وكفى أنَّه الذَّنْب الذي لا يَغفِره الله، إلاَّ لَمن تاب وأناب قبلَ أن يموت.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72].

وقال النبيُّ ﷺ: ((ألاَ أُنبِّئكم بأكبرِ الكبائر؟ الإشراك بالله))؛ متفق عليه.

والشِّرْك بالله تعالى نوعان: شرْكٌ أكْبر، وهو عِبادة غير الله، أو صَرْف أيِّ شيءٍ مِن العبادة لغير الله، وشرْك أصغَر ومنه الرِّياء؛ قال تعالى في الحديث القُدسي: ((أنا أغْنَى الشُّركاء عنِ الشرك، مَن عمِل عملاً أشْرَك معي فيه غيري تركتُه وشِرْكه))؛ رواه مسلم.

وإليك بيانَ بعض المحرَّمات الشركية التي يجب الإقلاع عنها، وقد راعينا في اختيارها ما يهمُّ ويقَع فيها السوادُ الأعظم من الناس، فنسأل الله تعالى أن يقيَنا وسائرَ المسلمين الذنوبَ والمعاصي، وأن يختم لنا بخاتمةِ السعادة أجمعين.

1- شدُّ الرِّحال لأولياء الله تعالى:

وهذا أمرٌ قد عمَّ وانتشر انتشارَ النار في الهشيم، وشدُّ الرِّحال والذَّهاب إلى أصحاب الأضرحة مِن الأولياء وأقطاب الصوفيَّة الذين ماتوا وسؤالهم والاستعانة بهم، والنَّذْر والدُّعاء عندهم، إنَّما هو شرْك يُخالف صريحَ القرآن والسُّنة، وإليك بعض الأدلَّة على حُرمة ذلك؛ قال – تعالى –: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: 18].

---

1 ــ الدكتور: محمد راتب النابلسي، مجلة نهج الإسلام، عدد: 32، 2008م.

2 ــ مقال: سيد مبارك، بتاريخ: 2011/4/11 م - 1432/5/8 هـ، على شبكة الألوكة. https://www.alukah.net

• وعن ابن عبَّاس ﷺ قال: كنتُ خلْفَ النبيﷺ يومًا فقال: ((يا غلامُ، إني أُعلِّمك كلمات: احفظِ الله يحفظْك، احفظِ الله تجدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتَبَه الله عليك، رُفِعت الأقلام وجفَّتِ الصُّحُف))[1].

• وعن أبي هُريرةَ ﷺ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: ((قال الله تعالى: أنا أغْنَى الشُّركاء عن الشِّرك، مَن عمِل عملاً أشْرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكه))[2].

وفي هذه الأدلَّة مِن القرآن والسُّنة الكفاية ليتبيَّن ضلالُ مَن يفعل ذلك؛ اعتقادًا منه أنَّ هناك مَن ينفع أو يضر مع الله تعالى.

2- الحلف بغير الله تعالى:

لا يجوز للمسلِم أن يحلِفَ أو يقسم بغير الله تعالى، مِثال ذلك: الحَلِف بالأمانة والنِّعمة، وحياة النبي وحياة الأب والأم، وروح فلان أو رحمته، أو غير ذلك، فكلُّ هذا حرامٌ، وإليك بعضَ الأدلَّة من الأحاديث الصحيحة:

• رَوى البخاريُّ ومسلمٌ عنِ ابن عمرَ مرفوعًا قال ﷺ: ((ألاَ إنَّ الله ينهاكم أن تحلِفوا بآبائكم، فمَن كان حالفًا فليحلفْ بالله أو ليصمت))[3].

• ورَوى أبو داود: ((مَن حلَف بالأمانة فليس منَّا))[4].

هذا، وعلى فرْض أنك أخي القارئ حلفتَ خطأًودون قصْد أو نيَّة بالنبي، أو الأمانة، أو بحياة فلان، أو غير ذلك بحُكم العادات المتوارثة، فكيف تخرُج مما قلت؟

الجواب: ولله الحمد والمِنَّة فقدْ جعَل لنا من الأمْر مخْرجًا، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ أنَّ النبي ﷺ قال: ((مَن حلَف فقال في حَلِفه: باللات والعُزَّى، فليقل: لا إله إلا الله))[5].

إذًا للخروج ممَّا قلت أن تقولَ: لا إله إلا الله، وليس هناك كفَّارة مِن مال أو صيام؛ لأنَّ الحالِفَ بغير الله قد أشْرك، والشِّرك لا كفَّارة له، فليس له إلا الاستغفار وقول: لا إله إلا الله.

وقدْ جاء في الأثَر أنَّ عبدالله بن مسعود ﷺ كان يقول: "لأنْ أحلِفَ بالله كاذبًا أحب إليَّ مِن أن أحلِف بغيره صادقًا"، لماذا؟

لأنَّ الحلِف بالله كاذبًا يمين غموس ومِن الكبائر، والحلِف بغيره شِرْك، ومن أعظم الكبائر، انتبه.

3- تعليق التمائم:

والتَّمائم جمْع تميمة، وهي خرَزة كان العرَب يجعلون أولادهم يلبسونها، زاعمين أنَّها تدفَع عنهم شرَّ الجن وتقيهم العين وغير ذلك، وهذا شِرْك وحرام، والدليل قول النبي ﷺ: ((مَن علَّق تميمةً فقد أشرك))[6].

وقد يقول قائل: إنْ كانتِ التميمة مِن آيات القرآن، فهل تجوز؟

الإجابةُ ما جاء في كتاب "فتح المجيد في شرْح كتاب التوحيد" ما يلي باختصار: "أنَّ السَّلَف اختلفوا في ذلك فبعضُهم رخَّص فيها، وبعضهم منَع، والأقرب إلى الصواب هو النهيُ عن ذلك للأسباب التالية:

---

1 ــ أخرجه الترمذي في صفة القيامة (2516)، وأحمد في مسند بني هاشم (2664).

2 ــ أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (2985).

3 ــ أخرجه البخاري في الأدب (618)، ومسلم في الأيمان (1646).

4 ــ أخْرَجه أبو داود في الأيمان والنذور (2831)، وأحمد في مسنَد الأنصار (22471)، وإسناده صحيح.

5 ــ أخْرَجه البخاري في الأيمان والنذور (6650)، ومسلم في الأيمان (1647).

6 ــ أخرَجه أبو داود في الطب (3388)، ومسلم في السلام (2200).

1- عموم النهي ولا مُخصِّصَ للعموم.

2- سدّ الذريعة، فإنَّه يُفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.

3- أنَّه إذا علَّق فلا بدَّ أن يمتهنَه المعلِّق بحملِه معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء، ونحو ذلك.

4- الرُّقى:

والرُّقية منها ما هو شِرْك، ومنها ما هو مشروع، فالأوَّل محرَّم وشِرْك، والدليل ما أخرجه مسلمٌ عن عوف بن مالك قال: "كنَّا نرقي في الجاهلية فقُلنا: يا رسولَ الله، كيف ترى في ذلك؟ فقالﷺ: ((اعْرضوا على رُقاكم، لا بأسَ بالرُّقَى ما لم تكن شِركًا))[1].

فإن كانتِ الرُّقية بتعاويذ وطلاسِم وكلمات غير مفهومة، فهذا شرْكٌ وكُفر، ومِن أمثلة ذلك ما جاء في كتاب: "الرَّحْمة في الطبِّ والحِكمة"، وأنقُله لك مِن كتاب السُّنن والمبتدعات؛ لنوضِّح ردَّ مؤلفه اللاذع والقوي على هذه السخافات؛ لتزدادَ فائدة وتحترز مِن هذا الكتاب وغيره مِن الكتب التي تدعو إلى الشِّرْك والعياذ بالله؛ جاء في "السنن والمبتدعات" نقلاً وردًّا على كتاب "الرحمة في الطبِّ والحِكمة" ما نصُّه:

• (لعِلاج رمَد العين) نقلاً عن شيخِهم وإمامهم وقُدوتهم إلى الجهْل والبله والغَباء والجنون صاحِب كتاب الرحمة، بل اللَّعْنة في الطبِّ والحِكمة، قال: يُؤخَذ دم الحائِض التي لم يمسَّها رجل ويُخلَّط مع المني، ويكتحل به، فإنه يقطع البياض مِن العين، قال: والحق أنَّه يقطع النُّور مِن العين.

• (لعلاج العمى)، قال الشيخ في كتاب اللعنة: "عزمت عليك، أيتها العين بحق "شرا هيا براهيا ادنواى أصاؤت أل شداي"، عزمت عليك أيتها العين التي فلان بحق "شهت بهت أشهت باقسطاع ألحا."، أخْرِجي نظرة السوء كما خرج يوسف من المضيق، وجُعل لموسى في البحر طريق"... إلخ، وقال عبدالسلام محمد في كتابه: "السنن والمبتدعات" ردًّا على هذه الرقية الشيطانية ما نصه:

"أقول: كيف يحكُم الإنسان على هؤلاء الشيوخ؟! أنحكُم عليهم بأنهم يهود؛ لأنهم ألِفوا كلام اليهود وعلوم اليهود، أو نحكُم عليهم بالنصرانية؛ لأنَّ معظم ما ينقلونه هو الكُفر أقرب منه للإيمان، أم هم أهل بدعة وجهالة بالدِّين، بله وغباوة، وقلوب عمياء؟!".

• (لتقوية الجماع) قال الشيخ: تكتب في ورقة بقلم نحاس، وتجعله تحت لسانك أي وقت الجماع، وهذا ما تكتب:

(191691119111569186931111811145)

قال عبد السلام محمد: مَن عمِل بها فهو أغفل مغفَّل على وجه الأرض، ومن لم يحرق هذا الكتاب وأمثاله فسيُحرق هو بنار الجهل، وما يجرُّه عليه من فقر وأمراض، وتخبُّط في البلاء والهموم والأحزان، وبعد هذا عذاب الآخِرة النار يصلونها، ولبئس المهاد .اهـ"[2].

وإني أنصح مَن يصدِّق مثل هذا الكلام ويعمل به أن يتوبَ ويلجأ إلى الرقية الشرعية المشروعة، وله فيما فعَلَه ابن مسعود – رضي الله عنه – عبرة وعظة؛ فقد رأى يومًا في عنق زوجته خيطًا فسألها: ما هذا؟ فقالت: خيط رقي لي فيه من الحمَّى، فجذَبه فقطعه فرمى به ثم قال: لقدْ أصبح آل عبد الله أغنياءَ عن الشرك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّ الرُّقَى والتمائم والتولة شرْك))، فقالت: لقد كانت عيني تقذف، وكنتُ أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقَى سكنَتْ، فقال عبدالله بن مسعود: إنَّما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقَى كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان ﷺ يقول: ((أذهِب الباس ربَّ الناس، واشفِ أنت الشافي، لا شفاءَ إلاَّ شفاؤك شفاء لا يُغادر سَقَمًا))[3].

---

1 ــ أخرجه مسلم باب بَابُ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ (2200)

2 ــ انظر السنن والمبتدعات؛ لعبد السلام محمد ص (292 – 295).

3 ــ أخرجه أحمد في مسند المكثِرين من الصحابة (3604)، وأبو داود في الطب (3385)، وإسناده صحيح، والتمائم والتولة: ضرب مِن السِّحْر يزعمون أنَّه يُحبِّب المرأةَ إلى زوجها.

ومِن ثَمَّ يتبيَّن لنا من هذه الأدلة أنَّ الرقية الشرعيَّة ما كانت بأسماء الله أو صِفاته أو بقرآنه أو بكلام النبي ﷺ فكلُّه جائزٌ، وغير ذلك فهو شرْك، وقد جاء في كتاب: "فتح المجيد في شرح التوحيد" ما يلي: قال السيوطي – رحمه الله –: قدْ أجمع العلماءُ على جواز الرُّقَى عندَ اجتماع ثلاثة شروط:

1- أن تكونَ بكلام الله أو بأسمائه وصِفاته.

2- وباللِّسان العربي وما يُفهم معناه.

3- وأن يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثِّر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى"[10]. فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد (ص/ 132)، ط دار الفكر.

5- تصديق العرَّافين والدجَّالين:

مَن أتَى العرَّافين والدجَّالين ليسألهم عن شيء، فقد أتى بابًا من أبواب الشِّرْك؛ لأنه اعتقد أنَّ هناك من البشر مَن يعلم الغيب، وهذا افتراءٌ وكذِب؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65].

هذا، وقد حذَّر النبي ﷺ أمتَه مِن إتيان العرَّافين والدجَّالين؛ فقال ﷺ: ((مَن أتى عرَّافًا فسأله عن شيء لم يُقبل له صلاةٌ أربعين ليلة))[11]. أخرجه مسلم في السلام (2230)، وأحمد في مسند الأنصار (22711).

وأيضًا الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ قال فيه ﷺ: ((مَن أتى حائضًا أو أمرأةً في دُبرها فقدْ كفَر بما أُنزِل على محمَّد))[12]. أخرجه الترمذي في الطهارة (135)، وأبو داود في الطهارة وسننها (3405).

وأنواع الدَّجَل والشعوذة كثيرة؛ كضَّرْب الودع، وقراءة الفنجان، وتصديق أبراج الحظ في الجرائد والمجلات، وقراءة الكف والكوتشينة... إلخ.

فكلُّ هذا دجَل وشعوذة، وضرْب من ضروب التخيُّل، وليس غيبًا يعلمونه، وهؤلاء الدجَّالون يمتازون بلباقة في الحديث، ورشاقةٍ في الأسلوب، وإنَّ من البيان لسحرًا، وهم يضحكون على عقول السذج مِن البُسطاء أو أصحاب القلوب الفارِغة مِن الدِّين من حمَلة المؤهلات العليا والمتوسِّطة، الذين يُصدِّقون مثلَ هذه الخُرافات، وأُهدي إليهم هذا الدليلَ؛ عسى أن يعودوا إلى طريق الحقِّ والرَّشاد مِن كلام الصادق المعصوم – صلَّى الله عليه وسلَّم؛ روَى البخاري ومسلم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: سألَ رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – أناسٌ عن الكهَّان، فقال: ((ليسوا بشيء))، فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّهم يُحدِّثوننا أحيانًا بشيء، فيكون حقًّا؟ فقال ﷺ: ((تلك الكلمة مِن الحق يَخطَفُها الجن، فيقرها في أُذن وليِّه، فيخلطون معها مائةَ كذبة))[13]. أخْرَجه البخاريُّ في الطب (5762)، ومسلم في السلام (2228).

وبادئ ذي بَدْء، فإني أحذِّر من شراء الكتب التي تدعو إلى الشِّرك، مثل: كتاب شمس المعارف الكبرى، وكتاب الرحمة في الطب والحِكمة، وكتاب أبي معشر الفَلَكي، وغيرها مِن كُتب تحمل في طِيَّاتها السُّمَّ الزعاف، الذي يُصيب مَن يُصدِّقه بوباء الشرك الذي لا يغفره الله تعالى، وإليك فقراتٍ مِن هذه الكتب؛ لتكونَ على بينة من أمرك، فلا تشترها وحذِّر منها إخوانك لما قد يجرُّه عليهم تصديقُها من سوء الخاتمة في الدنيا والآخِرة.

جاء في كتاب شمس المعارف الكبرى (1/ 16): "لَمن أراد علاجَ مريض أو عودة غائب أو التوفيق بيْن متخاصمين، فيعرفون ذلك بأن جعلوا لكلِّ ملَك يومًا مسؤولاً عنه، فمَن أراد شفاء المريض أو عودة الغائب أو الإصلاح بين المتخاصمين، يعرِفون اليوم، ثُم ينادون على المَلَك الموكَّل بهذا اليوم، ويستغيثون به من دون الله لشفاءِ المريض، أو عودة الغائب أو الإصلاح بين المتخاصمين". اهـــ.

في نفس الكتاب (1/ 116): دُعاء واستغاثة بأسماء ملائكة وشياطين، وبعض أسماء الله الحُسْنَى أنقُله لك؛ لتدركَ إلى أيِّ مدًى صار تصديق مثل هذا الكلام، من شرك وضحِك على العقول جاء ما نصُّه:

"أجب ياسمسمائيل بحضور الملك الأحمر، أجب يا أحمر بحق الملك الغالب عليك أمره سمسمائيل، وبحق دمليخ إلا ما أجبت وأسرعت وفعلت ما أمرتك به، أقسمت عليك يامِيكائيل الموكل بفلك عطارد، وبحق من لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير الستار، أجب يا ميكائيل بحضور برفان أجب يا برفان بحضور الملك الغائب"... إلخ.

وفي (2/ 63) تقرأ استعانةً وسؤالاً بكلمات كلُّها دجَل وشعوذة، مِثل قوله:

هذا الاسم السَّريع (أهلا هلا هله، الذات واللوح والقلم، يا بريا وصول أوصل كذا إلى كذا، وأوصل المودة بينهما بيهلطيف سليطيع اسماطون أطوان هكش برقش هيو رش بهليور الركياظ هيورش ياروش... أجيبو أيتها الأرواح العظام بالاسم المخزون المكنون،أجب يا سالم يا ميمون، يكتب يوم الأربعاء بماء الحبق النهري القرنفلي والزعفران وماء).

فهل هذه الأدعية والاستعانات مِن الله أم مِن الشيطان، اعلم أنَّ كلَّ هذا دجَل، ولا يعلم الغيبَ إلا الله، ولا نافِع ولا ضار إلا هو – سبحانه وتعالى.

أما كتاب (أبو معشر الفلكي) وهو دستور الدجَّالين والمشعوذين، فهو مليء بالأبراج والأرقام والخُرافات والشِّرْك من أوَّله إلى آخِره، فمثلاً: "إنَّ الحامِل إن أرادتْ أن تعرف المولود لها ذكرًا أما أُنثى جاء ما نصُّه:

احسبِ اسمها واسم أمها واسم اليوم الذي سُئلت فيه، وأسْقِطه على 44، فإن بقي واحد فولد، وإن بقي اثنان فأُنثى، وإن بقي ثلاث تسقط، وإن بقي 4 تلد زوجًا، ويستطرد قائلاً: مَن وَلَد أول النهار يكون غنيًّا، ومَن ولد آخِر النهار يكون غبيًّا".

طاعة الله تعالى: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: ((مَن نذَر أن يُطيع الله فليطعْه، ومَن نذَر أن يَعصي الله فلا يعصِه))[14] أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (6696).، والنذر لغير الله شِرْك وظلم، فلا يجوز العمل والوفاء به.

6- الطِّيَرة والتشاؤم:

الطيرة أو التشاؤم شرْك؛ لأنَّ الإنسان إنْ أراد أن يفعل شيئًا كسفَر أو زواج أو غير ذلك وتشاءَم مِن صوت بومة، أو رقم 13، أو لون مِن الألوان، أو كلمة يسمعها، أو غير ذلك، وردَّه عما كان سيفعله؛ خوفًا من ضرر يصيبه من ذلك، فقدْ أوقع نفسه في الشرك؛ قال القاضي عياض – رحمه الله تعالى –: إنَّما سمَّاها شِركًا لأنَّهم كانوا يرون ما يتشاءَمون به مؤثرًا في حصولِ المكروه، وملاحظة الأسباب دون مسبِّبها سبحانه في الجملة شِرْكٌ خفي، فكيف إذا نظَر إليها جهالةً وسوء اعتقاد؟!

ومِن أمثله ذلك ما تعتقده النِّساءُ في أيام النِّفاس من الدخول عليهنَّ بلحم أو باذنجان أو بلح أحمر فيحدُث لهنَّ تشاؤم؛ خوفًا من عدم نزولِ اللَّبن أو غير ذلك، فهو شِرْك، وعلى الإنسان أن يتوكَّل على الله، فإنْ منعَه مانعٌ دون اعتقاد بالضرر منه، وإنما اضطرَّ إلى ذلك فليس هذه طِيَرة أو شِرْكًا، ما دام عزم التوكل على الله القائِل: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: 3].

واعلم – أخي القارئ – أنَّ خيرًا من الطِّيَرة الفأل وتوقُّع الخير، وجاء عن أنس ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: ((لا عَدْوَى ولا طِيرة، ويُعجبني الفأل الحسن))، قالوا: وما الفأل يا رسولَ الله؟ قال: ((كَلِمة طيِّبة))[15]، أخرجه البخاري في الطب (5756) ، ومسلم في السلام (2224). والمسلم دائمًا يُحسِن الظن بالله ويتفاءَل خيرًا.

7- الرياء أو الشرك الخفي:

مِن شروط العمل الصالح أن يكون خالصًا من الرِّياء، فمن يُرائي في صلاته أو صدقته أو حجَّته أو شجاعته، فعملُه مردودٌ عليه؛ لقوله – تعالى –: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: 5].

ثُمَّ إن الرِّياء محبِط للعمل وخِداع للنفْس؛ قال – تعالى –: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: 142].

وقد حذّر النبي ﷺ وأنذر من الرِّياء والشِّرْك في الأعمال والأقوال، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ أنَّه ﷺ قال: ((قال الله تعالى: أنا أغْنى الشُّركاء عن الشِّرْك، فمَن عمل عملاً أشْرَك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكه))[16]. أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (2985) وابن ماجه في الزهد (4202).

وأيضًا عن ابن جندب بن عبدالله بن سُفيان ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: ((مَن سمَّع سمَّع الله به، ومَن يُرائي يرائي الله به)) [17]. أخرجه البخاري في الرقائق (6499) ومسلم في الزهد والرقائق (2987).

المحاضرة (13)

حقيقة الكفر من خلال السنة النبوية دراسة موضوعية

الكفر لغةً:

اتفقت المعاجم العربية على أنّ المعنى الأصلي للجذر «كَفَرَ» في اللغة هو السَّترُ والتَّغطيَةُ[1]، وجاء في المعجم الإشتقاقي المؤصل أنّ المعنى المحوري لهذا الجذر هو «تغطيةٌ تامة كثيفة لا يظهر معها شيءٌ من المغطّى»[2]، فيقال لمن غطّى درعه بثوبٍ: قد كفر درعه،[3] والكافر: الليل والبحر، ومغيب الشمس. وكل شيء غطى شيئاً فقد كَفَرهُ. والكافِرُ من الأرض: ما بعد عن الناس، لا يكاد يترله أحد، ولا يمر به أحد، ومن حلها يقال: هم أهل الكُفُور.

قال الضرير: هي القرى، واحدها: كَفْرٌ. ويقال: أهل الكُفور عند أهل المدائن كالأموات عند الأحياء.

والكافرُ في لغة العامة: ما استوى من الأرض واتسع. والكافر: النهر العظيم، والكَفَرُ: الثنايا من الجبال[4].

ويقال للزارع كافر لأنه يغطي الحب بتراب الأرض، حيث جاء في القرآن: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).

الكفر اصطلاحًا:

الكفر في الاصطلاح هو جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة،[5] أو جحود بالألوهية والربوبية معًا[6].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في مجموع الفتاوى(86/20): (الكفر: عدم الإيمان –باتفاق المسلمين– سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أو لم يعتقد شيئاً ولم يتكلم"

ويقول رحمه الله: (إنما الكفر يكون بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه، مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم) درء تعارض العقل والنقل: 242/1

ويقول رحمه الله: (فتكذيب الرسول كفر، وبغضه وسبه وعداوته مع العلم بصدقه في الباطن كفر عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة أهل العلم) منهاج السنة: 251/5

---

1 ــ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، 1/2 ــ 2.

2 ــ المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل، ص 1908،

3 ــ لسان العرب، ابن منظور، 15/5.

4 ــ كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، 1/4 ــ 4.

5 ــ الخلاف والاختلاف في عقائد المسلمين دواعيه وتداعياته. عبد الكريم بليل، ص: 142.

6 ــ الكفاءة القرائية عند علماء التراث (دراسة دلالية)، عرابي أحمد، ص: 15.

ويقول رحمه الله في مجموع الفتاوى (533/7) (والكفر تارة يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به، وتارة بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به، ثم مجرد تصديقه في الخبر، والعلم بثبوت ما أخبر به، إذا لم يكن معه طاعة لأمره، لا باطناً ولا ظاهراً، ولا محبة لله ولا تعظيماً له، لم يكن ذلك إيماناً) انتهى بتصرف يسير

ويقول ابن حزم –رحمه الله– في تعريف الكفر: (وهو في الدين صفة من جحد شيئاً مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معاً، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان) الإحكام: 45/1 ومن كلامهم في تعريف الكفر يمكن القول بأن الكفر قد يكون تكذيباً في القلب، وقد يكون عملاً قلبياً، مثل بغض الله تعالى، أو آياته، أو رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد يكون قولاً باللسان، مثل سب الله تعالى، أو سب رسوله، أو الاستهزاء بدينه وشرعه.

وقد يكون عملاً ظاهراً كالسجود للصنم، وإلقاء المصحف بالقذر ونحو ذلك.

الكفر ردة:

اتفق المسلمون على أن الكفر ردة، هو انكار المسلم أحد مبادئ الإسلام أو أحد أركان الإسلام، أو الإصرار على مخالفة أحكام الإسلام (العقائدية والعملية). ولكنهم اختلفوا في تفصيل هذه المبادئ والأركان والمخالفات.

أعمال الكفار كسراب بقيعة:

عن أنس بن مالك ﷺ مرفوعاً: «إنّ الكافر إذا عمل حسنة، أُطْعِمَ بها طُعْمَةً من الدنيا، وأما المؤمن فإنَّ اللهَ تعالى يدخر له حسناته في الآخرة، ويُعْقِبُهُ رزقًا في الدنيا على طاعته». وفي رواية: «إنَّ الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يُعْطَى بها في الدنيا، ويُجْزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فَيُطْعَمُ بحسنات ما عمل لله تعالى في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم يكن له حسنة يُجْزَى بها». صحيح رواه مسلم.

الفتن تفضي أحيانا للكفر:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «بَادِرُوا بالأعمال فِتَنًا كَقِطَعِ الليل المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرجلُ مؤمنا ويُمْسِي كافرا، ويُمْسِي مؤمنا ويُصْبِحُ كافرا، يبيعُ دينه بعَرَضٍ من الدنيا». صحيح رواه مسلم.

قال: "إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ".

حكم من سب مسلما أو قاتله:

عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سِبابُ المسلم فسوق، وقتاله كفر». صحيح رواه مسلم.

بين العبد والكفر:

قال ﷺ: " لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ ". قَالَ لِي أَبُو مُحَمَّد: الْعَبْدُ إِذَا تَرَكَهَا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَعِلَّةٍ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُقَالَ: بِهِ كُفْرٌ وَلَمْ يَصِفْ بِالْكُفْرِ.

أعمال الكفار:

قالﷺ : "الصِّدْقُ، وَإِذَا صَدَقَ الْعَبْدُ بَرَّ، وَإِذَا بَرَّ آمَنَ، وَإِذَا آمَنَ، دَخَلَ الْجَنَّةَ"، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَمَلُ النَّارِ؟ قَالَ: " الْكَذِبُ إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ فَجَرَ، وَإِذَا فَجَرَ كَفَرَ، وَإِذَا كَفَرَ دَخَلَ " يَعْنِي النَّارَ.

النهي عن تكفير المؤمن:

قالﷺ : "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ يَا كَافِرُ، فَإِنَّهَا تَجِبُ عَلَى أَحَدِهِمَا، فَإِنْ كَانَ الَّذِي قِيلَ لَهُ كَافِرٌ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِلَّا رَجَعَ إِلَيْهِ مَا قَالَ".

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله–في ((الكيلانية)) 466/12:

((وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة.

والمقصود أن المبتدعة على تنوع مشاربهم وتباين أصولهم ومناهجهم يروج عندهم تكفير مخالفيهم عند أدنى مخالفة.

في حين يتحرج أهل السنة والجماعة من تكفير المخالف حرجا شديداً، لأن التكفير حكم شرعي، وهو حق لله ولرسوله ﷺ، وهو خطيرٌ في الآثم ديناً وعاقبة، ولذا فهم لا يؤاخذون بلوازم الأقوال في التكفير حتى يكون الكفر صريحاً لا لبس فيه، كما لا يعولون في التكفير على الظنون والأوهام والأهواء، وإنما المُعوَّل عليه عندهم الأمر البواح الذي لهم فيه من الله سلطان وحجة ظاهرة وبرهان.

وقال ﷺ: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: أَنْتَ كَافِرٌ أَوْ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا".

فليس كل من وقع على الكفر وقع الكفر عليه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع) مجموع الفتاوى 487/12

ويقول: (ومن ثبت إسلامه بقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة).

مجموع الفتاوى466/12

لا يكفر المسلم العاصي:

الكفر الأصغر: فقيام الإنسان بالأعمال التي تغضب الله عز وجل لا تخرج صاحبها من الملة، ولا يوصف مرتكبها بالكافر، وهذا النوع من الكفر لا يخرج صاحبه من الملة، لأنه يقوم على قيام الإنسان بالأعمال التي تغضب الله تعالى، وتكون مخالفة للأحكام التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ومنهم من يكفر المسلم العاصي، ويستدلون بأحاديث على ذلك، وأما ما استدلوا به من السنة على بدعتهم في تكفير العصاة من المسلمين فقد أساءوا فهم الأحاديث وحمَّلُوها المعاني التي يريدونها، ومن تلك الأحاديث ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن)). رواه البخاري، 5578، ومسلم: 57.

وردا على من يغالي في تكفير المسلمين ما جاء في حديث أبي ذر ﷺ أنه قال: ((ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلت: وإن زنى وإن سرق ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر، قال: فخرج أبو ذر وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر)). رواه البخاري: 5827، ومسلم: 94.

ومذهب السلف هو أنهم لا يبرأون ممن أقيم عليه الحد ولا يعتبرونه كافراً، فقد كان الرسول ﷺ نفسه والصحابة من بعده يصلون على من مات في الحد، بل ويترحمون عليه كما قال ﷺ لأصحابه: ((استغفروا لماعز بن مالك قال الراوي: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك)).

ما هو كفر النعمة وما هو شكر النعمة وما عقوبة الكافر بالنعمة؟

إن كفر النعمة معناه: جحدها وعدم شكرها والتحدث عنها، جاء في مسند الحارث عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "من أعطي عطاء فقدر أن يجزي به فليجز به، ومن لم يقدر فليحسن الثناء، فان لم يفعل فقد كفر النعمة". الحديث.

وفي كتر العمال أنه ﷺ قال: "مَن أزلفت إليه يد كان عليه من الحق أن يجزي بها، فان لم يفعل فليظهر الثناء، فإن لم يفعل فقد كفر النعمة". رواه ابن أبي الدنيا وذكره الحافظ في الإصابة.

ومعنى كفرها لم يشكرها أو يجز عليها أو جحدها كما أشرنا.

وشكر النعمة يكون بالقلب واللسان والجوارح، وبعدم صرفها فيما لا يرضي الله تعالى.

قال القرطبي في التفسير: وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال: ألا تتقوى بنعمه على معاصيه.

وأما عقاب كفر النعمة فإنه يكون بزوالها والعقاب عليها؛ فكما أن شكر النعمة يزيدها فإن كفرها يزيلها.

قال ابن كثير في التفسير عند قول الله تعالى: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)، {إبراهيم:7}. أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ولئن كفرتم أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها إن عذابي لشديد، وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها".

ومن الآثار المترتبة على كفر النعم غضب الله، وحرمان العبد من البركة في كل شيء، وتزول نعمته وقد ذكر ذلك في القرآن الكريم في قصة سبأ فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، سبأ: 15 ــ 16.

أنواع من الكفر الأكبر:

كفر إنكار: حيث يعرف هذا النوع بكفر التكذيب، وهو أن يكون العبد كافرا بلسانه وقلبه، ولا يوحد الله ولا يؤمن به، وقد يطلق هذا على الملحدين، الذين ينكرون وجود الله عز وجل ولا يؤمنون به فقال الله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَما جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} [العنكبوت:68].

كفر الجحود: وهو أن يكون العبد معرف بالله عز وجل بقلبه فقط، ولكن لا ينطق لسانه، ومثل هذا كان كفر فرعون بموسي عليه السلام، وأيضاً يرجع إلى كفر اليهود بسيدنا محمد ﷺ، فكل هذا مثال على كفر الجحود فإنهم كانوا يعلمون أنه على حق ولكن لا ينطق لسانهم أبداً ومن آيات الله عز وجل قال: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: 14]، وفي قول الله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة: 89].

كفر استكبار: ويرجع هذا إلى أنهم يعلمون أن ما، قد جاء به الله ورسوله حقا ولكن يستكبرون مثل إبليس عندما ابي الا يسجد لله عز وجل فقال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ[البقرة: 34].

ومثل هذا النوع أيضا كفر أبو جهل وكفار قريش برسول الله رغم معرفتهم بصدقة ، وكان الرسول ﷺ شأن عظيم بينهم ، فكانوا يعرفون أن ما قد جاء به حق ولكن استكبروا، وجاء ذلك في قول الله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ[الزخرف: 31-32].

كفر إعراض: وهذا الكفر يكون العبد غافلا عن الله بقلبه ولسانه وهو لا يصدق ولا يكذب ولا يصغي إليه ، وجاء ذلك في قول الله تعالى: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [فصلت: 3-4]، وقال عندما كان الله عز وجل يصف حال الكافرين: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ}، [الأحقاف: 3]

كفر الشك: وهو كفر الظن فيكون غير متيقن تماماً، عن ما يقال وقد جاء في قول الله تعالى: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَاكَ رَجُلاً * لَكِنا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} [الكهف: 35-38].

كفر النفاق: وهو من يظهر الإسلام ولكن في باطنه الكفر بالله، ويعتبر هذا النوع أشدهم كفرا، وكان قد توعد لهم الله تعالى أنهم في الدرك الأسفل من النار كما جاء في قول الله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً} [النساء:145].

الإسلام يجب ما قبله:

قال ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَضْحَكُ مِنَ الرَّجُلَيْنِ قَتَلَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ جَمِيعًا " يَقُولُ: " كَانَ كَافِرًا قَتَلَ مُسْلِمًا ، ثُمَّ إِنَّ الْكَافِرَ أَسْلَمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ ، فَأَدْخَلَهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ".

انتهى بحمد الله
مقياس التفسير والحديث الموضوعي
مقرر سنة ثالثة دعوة وثقافة إسلامية
إعداد
الدكتور مصباح موساوي
أستاذ التفسير وعلوم والقرآن
جامعة الشهيد حمة لخضر- الوادي